الفاصلةُ في سورةِ الضحى

بين دقةِ المعنى وجمالِ المبنى

The Verse-Endings (Fawāṣil) in Sūrat al-Ḍuḥā: Between Precision of Meaning and Beauty of Structure

إعداد

د/ علي عبدالكريم مبروك إبراهيم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة.

الفاصلةُ في سورةِ الضحى بين دقةِ المعنى وجمالِ المبنى

علي عبد الكريم مبروك إبراهيم
قسم: اللغة العربية وآدابها، تخصص: البلاغة والنقد، كلية: الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، القاهرة ، مصر.
البريد الإلكتروني: Aliibrahim1591.el@azhar.edu.eg

الملخص:

تناولتْ هذه الدراسةُ الفاصلةَ في سورةِ الضحى؛ محاولةً الكشفَ عما تتسمُ به الفاصلةُ القرآنيةُ من دقةٍ متناهيةٍ، وما لها من أثرٍ عجيبٍ في تشكيلِ المعنى وإبرازِه، إضافة إلى ما تشيعه في جوانبِ النصِ من جمالٍ، وما تلقيه عليه من حسنٍ، وقد عَمدتُ إلى ربطِ الفاصلةِ بسياقها؛ إمعانًا في فهمها، وطلبًا لإدراك حقيقة العلاقةِ بينها وبين ما سبقها ولحقها، فاستبان لي أنها قد اختيرت بدقةٍ، ووضعت موضعها بعنايةٍ، فلم تكن مجردَ حليةٍ فيمكن حذفها أو الاستعاضة عنها بغيرها، بل أدت وظيفتها خير أداءٍ، ووفت بحقي اللفظ والمعنى أتم وفاءٍ، فاستروحت بها النفوسُ، ونشطت لتلقيها العقولُ، وعلقت بحسنها وروعة نظمها القلوبُ.

وقد تبين من خلال هذه الدراسةِ أن الفاصلةَ سرٌ من أسرارِ القرآنِ، ووجهٌ من وجوهِ إعجازِهِ الذي أعجز العربَ، ودلَّهم على أنَّه مما يخرجُ عن طوقِ البشرِ، ولا تحيطُ به القدرُ. كذا أبانت الدراسةُ عن دورِ الفاصلةِ في الربطِ بين أجزاءِ الجملةِ الواحدةِ والجملِ المتعددة، بل السورة من أولها إلى آخرها، فبالدراسة المتأنية للفواصلِ يظهرُ لنا العلاقة الوثيقة والتناسب التام بين صدر الآيات وعجزها، وتلك ظاهرةٌ تسترعي الانتباه، ثابتةٌ في القرآن كله، حيث جاءت فواصله في حقلٍ دلالي مناسبٍ، وبيئةٍ من الألفاظِ المتناغمةِ.

الكلمات المفتاحية: الفاصلة القرآنية ، سورة الضحى، البلاغة القرآنية، بلاغة الفواصل ، خصائص النظم القرآني.

The Verse-Endings (Fawāṣil) in Sūrat al-Ḍuḥā: Between Precision of Meaning and Beauty of Structure

Ali Abd al-Karim Mabrouk Ibrahim
Department of Arabic Language and Literature، Specialization: Rhetoric and Criticism، Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo، Al-Azhar University، Cairo، Egypt
Email: Aliibrahim1591.el@azhar.edu.eg

Abstract:
This study examines the verse-endings (fawāṣil) in *Sūrat al-Ḍuḥā*، aiming to uncover the remarkable precision with which they are chosen and the profound effect they have in shaping and highlighting meaning. It also explores the aesthetic beauty they impart to the text and the elegance they bestow upon it. The research connects each verse-ending to its surrounding context in a deliberate effort to understand it fully and to discern the true nature of its relationship with what precedes and follows it. It became evident that these verse-endings were selected with great care and positioned with meticulous precision. They are not mere embellishments that can be omitted or replaced; rather، they perform their function perfectly، fulfilling the rights of both wording and meaning in the most complete sense. As a result، they bring comfort to the soul، stimulate the intellect، and captivate the heart with their beauty and eloquent arrangement.
The study reveals that the verse-ending is one of the secrets of the Qur'an and a facet of its inimitability (iʿjāz)، which left the Arabs awestruck and demonstrated that it lies beyond human capacity and comprehension. Furthermore، the study highlights the role of the verse-ending in connecting parts of a sentence، multiple sentences، and even the entire sūrah from beginning to end. Through careful examination of the verse-endings، a strong relationship and complete harmony between the beginnings and endings of verses become evident—a striking phenomenon consistently observed throughout the Qur'an، where the verse-endings fall within an appropriate semantic field and a harmonious linguistic environment.

Keywords: Qur'anic Verse, Ending , Sūrat Al-Ḍuḥā , Qur'anic Rhetoric , Rhetoric Of Verse-Endings , Features Of Qur'anic structure

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ المستحقِ للحمدِ المتصفِ بالكمالِ، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ أنبيائه وخيرِ رسلِهِ سيدنا محمدٍ -ﷺ- وعلى آلهِ وصحبهِ ومن تبعهم بإحسانٍ وبعد...

فإنَّ من نافلةِ القولِ أنَّ نظمَ القرآنِ وأسلوبَه مباينٌ لكل نظمٍ وأسلوبٍ، فقد توافر له من الخصائصِ ما لم يتوافر لغيره، وأُتيح له من الوسائلِ ما لم يُتح لسواه، فجمعَ بين دقةِ المعنى وجمالِ اللفظِ وعذوبةِ النظمِ، وإنَّك بالنظرةِ العَجلى لتجدُ توافقًا عجيبًا، وتآلفًا بديعًا بين مبانيهِ ومعانيهِ، حتى لقد قال قائلُهم: إنَّ له لحلاوةٌ، وإنَّ عليه لطلاوةٌ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وهل دعاهم لقول ذلك إلا ما وجدوه من الجمعِ بين دقيقِ المعاني، وشريفِ الألفاظِ، وجميلِ المباني؟، وتلك غايةٌ بعيدةٌ لا تتأتى إلا لبليغٍ بعد جهدٍ ولأيٍ، ولو انقادت له في بعضِ قوله فمحالٌ أن تنصاع له في جميعه؛ إذ قد يُغريه جمالُ اللفظِ وروعتُهُ فيميلُ إليه على المعنى، فتجدُ لفظًا رائقًا ونظمًا شائقًا، فإذا دققتَ النظرَ باحثًا عن جوهره ولبه لا تجد تحته كثيرَ معنى. أو قد يميلُ إلى المعنى على اللفظِ، فتجدُ معنى شريفًا، لكنه قد أُلبس من اللفظ ثوبًا وضيعًا، فأضعفه وضعضعه وأزرى به، وصرف القلوب عنه.

يقول أبو هلال: " إن الكلام ألفاظٌ تشتملُ على معانٍ تدلُّ عليها، ويُعبَّرُ عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابةِ المعنى كحاجته إلى تحسينِ اللفظ؛ لأنّ المدار بعد على إصابةِ المعنى، ولأنَّ المعاني تحلُّ من الكلام محلَّ الأبدان، والألفاظُ تجرى معها مجرى الكسوة، ومرتبةُ إحداهما على الأخرى معروفةٌ" (١).

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ، ص٦٩.

وقد نُقل عن بعضهم قولُه:" أحسنُ الكلامِ ما شَرُفَتْ مبانيه، وظَرُفتْ معانيه، والتذَّهُ سمعُ سامعيه" (١).

وهذه القضيةُ شغلت أذهانَ القدامى، ونالت حيزًا كبيرًا من تفكيرهم ومؤلفاتهم، فبعضُهم ينتصرُ للفظِ، وبعضُهم ينتصرُ للمعنى، وقد عرضَ ابنُ رشيقٍ لها، وبيَّنَ المذاهبَ فيها، وبدأ دراستَهُ بهذا النصِ الرائعِ الذي ينمُ عن إدراكِهِ لحقيقةِ ما لكلٍ من دورٍ وأثرٍ، وما يترتب على الإخلالِ بأحدهما من اعتلالٍ وخللٍ، فقال: " اللفظُ جسمٌ، وروحُهُ المعنى، وارتباطُه به كارتباطِ الروحِ بالجسمِ: يضعفُ بضعفهِ، ويقوى بقوتهِ، فإذا سلِم المعنى واختلَّ بعضُ اللفظِ كان نقصًا للشعرِ وهجنةً عليه، كما يعرضُ لبعضِ الأجسامِ من العرجِ والشللِ والعورِ وما أشبهَ ذلك، من غيرِ أن تذهبَ الروحُ، وكذلك إن ضَعُفَ المعنى واختلَّ بعضُه كان للفظِ من ذلك أوفرُ حظٍ، كالذي يعرضُ للأجسامِ من المرضِ بمرضِ الأرواحِ، ولا تجدُ معنى يختلُّ إلا من جهةِ اللفظِ، وجريه فيه على غيرِ الواجبِ، قياسًا على ما قدمت من أدواءِ الجسومِ والأرواحِ، فإن اختلَّ المعنى كلُّهُ وفسدَ بقي اللفظُ مواتًا لا فائدة فيه، وإن كان حسنَ الطلاوةِ في السمعِ، كما أن الميتَ لم ينقص من شخصِهِ شيءٌ في رأي العينِ، إلا أنَّه لا يُنتفعُ به ولا يُفيدُ فائدةً، وكذلك إن اختلَّ اللفظُ جملةً وتلاشى لم يصح له معنى؛ لأنَّا لا نجدُ رُوحًا في غيرِ جسمٍ البتة" (٢).

ومن الوسائلِ التي لجأ إليها القرآنُ تحقيقًا لهذه الغايةِ التوافقُ بين فواصلِ آياتِهِ، وتلك ظاهرةٌ شائعةٌ في كثيرٍ من آياتِ الكتابِ العزيزِ، فكثيرٌ

(١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط:٢/١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص٣٤٩.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط:٥/١٩٨١م، جـ١/١٢٤.

من سورِهِ التزمت هذا التوافقَ في مواضعَ كثيرةٍ منها، وعادةً ما تتغيرُ فيها الفواصلُ فيقعُ فيها الانتقالُ من فاصلةٍ إلى أخرى تجديدًا للنشاطِ وقطعًا للرتابةِ ورفعًا للسآمةِ، ورُبَّمَا التزمت السورةُ هذا التوافقَ في كلِ آياتِها، ويحدثُ هذا عادةً في سورِ المُفَصَّلِ، فهي لقصرِها تحافظُ على ذلك التوافقِ في كلِ آياتِها، حيثُ لا حاجة لمخالفةِ هذا التوفقِ والتناسبِ بين فواصلِها؛ فهي لقصرِها لا يقعُ في النفسِ من هذا التوافقِ بين فواصلِها سآمةٌ ولا في الأسلوبِ رتابةٌ. فإن كان في هذا التوافقِ جفاءٌ بالمعنى وعقوقٌ له وإخلالٌ به فإنَّ القرآنَ يعدلُ عنه إلى أقربِ الألفاظِ مما يؤدي المعنى دون أن يُخلَّ بنضارةِ اللفظِ و رونقِ العبارةِ.

و قد رأيتُ أن أتناولَ في هذا البحثِ تلكم الظاهرةَ القرآنيةَ البديعةَ، وذلك من خلالِ الدراسةِ لفواصلِ سورةِ الضحى، محاولًا قدر طاقتي أن أُسلطَ الضوءَ على ما اتسمت به تلك الفواصلُ من دقةٍ في معانيها وجمالٍ في نظمِها ومبانيها، ولم أقتصر على دراسةِ الفاصلةِ بمعزلٍ عن محيطِها أو بمنأى عن سياقِها، بل عملتُ على ربطِها بما سبقَها ولحقَها، مبينًا ما وسعني أثرَها، وكاشفًا ما استطعتُ عن بلاغتِها وما حققته من معانٍ، وما لها من دورٍ في النظم والمعنى معًا، فاللهَ – تعالى– أسألُ إن يكتبَ لهذا العملِ القبولَ ولكاتبِهِ وقارئِهِ الأجرَ.

وقد جاء هذا البحثُ في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعةِ مباحث، وخاتمةٍ، وفهارس:

أما المقدمةُ فقد تناولت من خلالها أهميةَ الموضوعِ، وخطتَه، ومنهجَ دراستِهِ.

وأما التمهيدُ فجاء تحت عنوان: الفاصلةُ والإعجازُ البيانيُّ للقرآنِ.

وأما المباحثُ التي اشتمل عليها البحثُ فهي على النحو الآتي:

المبحثُ الأولُ: العلاقةُ بين القسمِ والفاصلةِ في سورةِ الضُحى.

المبحثُ الثاني: دورُ الفاصلةِ في تأكيدِ المعنى وتقويتِه.

المبحثُ الثالثُ: الحذفُ رعايةً للفاصلةِ وإقامةً للمعنى.

المبحثُ الرابعُ: العدولُ في الفاصلةِ وأثرُه الدلاليُّ.

ثم جاءت الخاتمةُ مشتملةً على أهمِ النتائجِ التي توصلَ إليها البحثُ.

ثم فهرسٌ للمراجعِ، وآخرُ للمحتوياتِ.

والحمدُ للهِ ربِ العالمين.

تمهيد

الفاصلةُ والإعجازُ البيانيُّ للقرآنِ

الفاصلة: كلمةٌ في آخرِ الآيةِ كقافيةِ الشعرِ وقرينةِ السجعِ، فالفواصلُ حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطعِ يقعُ بها إفهامُ المعاني ، وفرَّقَ الإمامُ أبو عمرو الدانيُّ بين الفواصلِ و رءوسِ الآي فذكرَ أنَّ الفاصلةَ هي الكلامُ المنفصلُ مما بعده، والكلامُ المنفصلُ قد يكونُ رأسَ آيةٍ وغيرَ رأسٍ، وكذا الفواصلُ يكنَّ رءوسَ آيٍ وغيرَها، وكلُ رأسِ آيةٍ فاصلةٌ، وليس كلُ فاصلةٍ رأسَ آيةٍ، فالفاصلةُ تعمُّ النوعين وتجمعُ الضربين. وتقعُ الفاصلةُ عند الاستراحةِ في الخطابِ لتحسينِ الكلامِ بها، وهي الطريقةُ التي يباينُ القرآنُ بها سائرَ الكلامِ، وتُسمَّى فواصلَ لأنَّها ينفصلُ عندها الكلامان، ولم يسمُّوها أسجاعًا تشريفًا للقرآنِ عن مشاركةِ غيرِهِ من الكلامِ الحادثِ [١].

ولا شك أنَّ للفاصلةِ دورًا في إعجازِ القرآنِ وبلاغةِ نظمِهِ؛ إذ لا يمكنُ نسبةُ الإعجازِ فيه إلى جهةٍ دونَ غيرِها، بل تضافرت كلُ الجهاتِ لتُحققَ هذا الإعجازَ، وتُقيمَ هذا التحدي، ومن هنا رأينا الإمامَ الباقلانيَّ يشنعُ على من جعلَ الإعجازَ فيه وقفًا على ما اشتمل عليه من بديعٍ، فقال: " وإنَّما لم نُطلق القولَ إطلاقًا، لأنَّا لا نجعلُ الإعجازَ متعلقًا بهذه الوجوهِ الخاصةِ ووقفاً عليها، ومضافاً إليها، وإن صح أن تكون هذه الوجوهُ مؤثرةً في الجملةِ، آخذةً بحظها من الحسنِ والبهجةِ، متى وقعت في الكلامِ على غيرِ وجهِ التكلفِ المستبشعِ والتعملِ المستشنعِ" [٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:١/ ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي، جـ٥٣/١.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط:٥/١٩٩٧م، ص١١٢.

ومن ثَمَّ فكلُ ما في القرآنِ معجزٌ بما في ذلك فواصلُهُ، وتتعددُ أوجه الإعجاز البلاغي التي تضمُها وتحويها الفاصلةُ القرآنيَّةُ، ويمكنُ تلخيصَ هذه الأوجه في النقاطِ التاليةِ:

الفاصلةُ وبناءُ السورةِ:

فبالنظرِ ندركُ أنَّ الفاصلةَ محورٌ من المحاورِ التي يُبنى عليها نظمُ السورةِ بأكملِها، فهي كالخيطِ الممتدِ يجمعُ عقدَ السورةِ، ويربطُ بين أجزائِها، ويحيطُ بجواهرِ لفظِها ولآلئ نظمِها وبديعِ معانيها، فيُظهرُ ما عساه يخفى من جمالِها، ويفيضُ عليها سحرًا، ويملؤها ريًا، فيجعلها معقلَ الحسنِ، ومطمحَ النظرِ، تتوقُ لها النفوسُ، وتستروحُ بها القلوبُ؛ لما تجدُهُ من لذَّةٍ، وما تلمسُه من إيقاعٍ هادئٍ لا شغبَ فيه ولا نشوزَ يعتريه، بل هو إيقاعٌ يتهادى ويسري في تناغمٍ عجيبٍ وتماسك أعجبٍ، حيث ترى تلك الفواصلَ –وما أحدثته من إيقاعٍ– عاملًا من عواملِ إظهارِ المعنى ودعمِهِ، على عكس ما تراه في كلامِ البشرِ؛ إذ كثيرا ما يطغى فيه الإيقاعُ والنغمُ على المعنى، فتقعُ بينهما خصومةٌ، وتكون بينهما مجافاةٌ، ينتصر فيها الإيقاعُ أو الموسيقى عادةً، إذ تتعلق بهما النفسُ منصرفةً عن المرادِ، غافلةً عن المقصود. لكنَّ القرآنَ حقق الأمرين معًا، فلم تقع فيه تلك المجافاةُ بين المعنى والإيقاع، بل إنك ترى الإيقاعَ فيه مساعدًا على فهم المعنى، داعيًا إلى الخشوعِ والتدبرِ والتأملِ، وهذ لا شكَّ سرٌّ من أسراره، ووجهٌ من وجوه إعجازه التي تسري في أوصالِه من أولِهِ إلى آخره، وهذا وجهٌ يحتاجُ إلى مزيدِ تأملٍ، وطولِ تدبرٍ وتفكرٍ، أدركه العربُ بما لهم من رقةِ طبعٍ، وما وُهبوه من فرطِ شعورٍ، وسلامةِ ذوقٍ، وإدراكٍ لدقائقِ النظمِ، ووعيٍ وفهمٍ لفنونِ القولِ وضروبِ التعبيرِ، فهم لا شكَّ تبين لهم أنَّ الجمعَ والمحافظةَ على الإيقاعِ مع عدمِ الإخلالِ بالمعاني في القرآنِ كلِّه دونَ أن تجدَ تفاوتًا أو سقوطًا في موضعٍ منها، هو مما يخرجُ عن طوقِ البشرِ، ولا تحيطُ به

القدرُ، " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا " ، فسبحان من هذا كلامه!

١- التوازنُ الصوتيُّ:

فالفاصلةُ مفعمةٌ بالإيقاعِ لفظًا ومعنى، ومحورٌ للعلاقاتِ القريبةِ والبعيدةِ مع القرينةِ والمقطعِ والسورةِ بأسرها، علاقاتُ تمكينٍ أو تصديرٍ أو توشيحٍ أو إيغالٍ، كما أنَّ لها ميزةً تفوقُ التقفيةَ في الشعرِ والنثرِ على حدٍ سواءٍ، وهي وجهٌ من وجوهِ إعجازِ الكتابِ العزيزِ(١).

ومن المعلومِ أن مبدأ التناسبِ بين الفقراتِ والجملِ من المبادئِ التي قامت عليه العربيةُ باعتبارِها لغةً موسيقيَّةً، وقد أشارَ البلاغيون إلى أثرِهِ الجماليِّ، حيثُ عالجوه ضمن دراستهم لألوانِ البديعِ التي لا يخرجُ أكثرُهَا عن أن يكون تناسبًا صوتيًا: كالموازنة والتصريع وكل ما يلحق بالوزن والقافية، أو تناسبًا دلاليًا صوتيًا: كالجناسِ والطباقِ وغيرهما، فهذه الأنواعُ تقومُ في عمومِها على تناسبٍ بين طرفين أو أكثرَ في النصِ، وهي تحققُ هذا التناسبَ بوصفهِ مقياسًا جماليًا له أهميتُه في التأثيرِ الإيجابيِّ على المتلقي وكسبِ تفاعلِهِ وإعجابِهِ(٢).

٢- الترابطُ الدلاليُّ والتماسكُ اللفظيُّ:

ولا يقتصرُ دورُ الفاصلةِ على ما تُحدثُهُ من تناغمٍ وإيقاعٍ، بل يمتدُ دورُهَا ويزدادُ تأثيرُهَا لتكونَ جزءًا من البناءِ الدلاليِّ للآيةِ، فقد تكونُ مكملةً للمعنى، أو مؤكدةً له، إلى غيرِ ذلك مما تؤديه من وظائفَ جماليةٍ ودلاليةٍ، وهذا ما أحاولُ الكشفَ عنه من خلالِ هذه الدراسةِ.

---

(١) الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط:٢/٢٠٠٠م، ص٣١٩.

(٢) الأسلوبية والبلاغة العربية مقاربة جمالية، د/مسعود بودوخه، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن ٢٠١٧م. ص٢٣٣.

فالوقوفُ بالفاصلةِ أو بالمحسناتِ البديعيَّةِ بصفةٍ عامةٍ عند حدودِ الجملةِ بحيثُ لا تتجاوزُهَا إلى ما سواها، وحصرُ وظيفتِها في الزخرفةِ، يقفُ حجرَ عثرةٍ أمامَ تذوقِ النصِ، وإدراكِ العلاقاتِ المتعانقةِ، وملاحظةِ باطنِ النصِ من ظاهرِهِ، وكيف أنَّ ظاهرَهُ يهدي إلى باطنِهِ، ليَبرُزَ من خلالِ ذلك كلِّهِ روعةُ الفنِ وجمالُه وجلالُه (١).

٣- دقةُ الفاصلةِ ووفاؤها بالمعنى

وتلك سمةٌ عامةٌ في القرآنِ كلِّهِ، حيثُ تجدُ جُمَلَهُ قد بُنيت بناءً محكمًا، فلا تحسُ بكلمةٍ تضيقُ بمكانِها، أو تنبو عن موضعِها، حتى صارَ من العسيرِ بل من المستحيلِ أن تستعيضَ عن كلمةٍ بأخرى، أو أن تحذفَ أو تضيفَ لفظًا، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضةَ جملةٍ في القرآنِ، أن ترجعَ بعد طولِ المطافِ إليها، كأنَّما لم يخلق اللهُ لأداءِ تلك المعاني غيرَ هذه الألفاظِ، وكأنَّما ضاقت اللغةُ فلم تجد فيها ما تؤدى به تلك المعاني غيرَ ما اختاره القرآنُ لهذا الأداءِ (٢).

يقولُ الخطابيُّ متحدثًا عن الوجوهِ التي بسببها عجزَ العربُ – وهم أربابُ الفصاحةِ والبيانِ– عن أن يأتوا بمثلِ القرآنِ ولو بمقدارِ أقصرِ سورةٍ منه: " ثُمَّ اعلم أنَّ عمودَ هذه البلاغةِ... وضعُ كلِ نوعٍ من الألفاظِ موضعَه الأخصَّ الأشكلَ بهِ، الذي إذا أبدلَ مكانَهُ غيرُه جاء منه: إمَّا تبدُّلُ المعنى

(١) ينظر: نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية بحث للدكتور/ سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد: العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو، أغسطس١٩٩١م. ص١٥٩، والبحث منشور على موقع دار المنظومة.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م. ص٨٥.

الذي يكون منه فسادُ الكلامِ، وإمَّا ذهابُ الرونقِ الذي يكونُ معه سقوطُ البلاغةِ..." (١).

وقد تجلتْ هذه الدقةُ وبدتْ واضحةً بلا خفاءٍ في فواصلِه، لذا اهتم العلماءُ بدراستِها، فكانت موضعَ عنايتِهم، ومحطَ نظرِهم ومحلَ وتدبرِهم، ولنقفَ على تلك الدقةِ في الفواصلِ فلنتأمل على سبيلِ المثالِ الفواصلَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:٣-٥] فإننا نجدُ أنَّ فاصلةَ الآيةِ الأولى: للمؤمنين. وفاصلةَ الثانية: يوقنون. وفاصلةَ الثالثة: يعقلون. والبلاغةُ تقتضي هذه الفواصلَ دونَ غيرِها، وهذا الترتيبَ دونَ سواه، ولو أنَّك بدَّلتَ بينها فوضعتَ فاصلةً منها موضعَ الأُخرى لاختلَ نظمُ الآياتِ، ونزلت درجتُها في البيانِ والبلاغةِ؛ إذ البلاغةُ حاكمةٌ بأن تكون فاصلةُ الآيةِ الأولى: للمؤمنين؛ لأنَّه سبحانه ذكرَ العالَمَ بجملتِهِ، حيثُ قال: السموات والأرض، ومعرفةُ ما في العالَمِ من الآياتِ الدالةِ على أنَّ المخترعَ له قادرٌ عليمٌ حكيمٌ وإن دلَّ على وجودِ صانعٍ مختارٍ فدلالتُها على صفاتِهِ مرتبةٌ على دلالتِها على ذاتِهِ، فلا بدَّ أولاً من التصديقِ بذاتِهِ حتى تكونَ هذه الآياتُ دالةً على صفاتِهِ لتقدُمِ الموصوفِ وجودًا واعتقادًا على الصفاتِ. وكذلك قولُه في الآيةِ الثانيةِ: لقومٍ يوقنون، فإنَّ نفسَ الإنسانِ وتدبرَ خلقِ الحيوانِ، أقربُ إليه من الأولِ، وتفكرُهُ في ذلك مما يزيدُه يقينًا في معتقدِهِ الأولِ، وكذلك معرفةُ جزئياتِ العالمِ من اختلافِ الليلِ والنهارِ، وإنزالِ الرزقِ من السماءِ، وإحياءِ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمد خلف الله، و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط:٣، ص٢٩.

الأرضِ بعد موتِها، وتصريفِ الرياحِ، تقتضي رجاحةَ العقلِ ورصانَته، ليعلمَ أنَّ من صنعَ هذه الجزئياتِ هو الذي صنعَ العالَمَ الكليَّ التي هي أحسنُ منه، وعوارضُ عنه، ولا يجوزُ أن يكونَ بعضُها صنعَ بعضًا بعد قيامِ البرهانِ على أنَّ للعالَمِ الكليِّ صانعًا مختارًا، فلذلك اقتضت البلاغةُ أن تكونَ فاصلةُ الآيةِ الثالثةِ: لقومٍ يعقلون، وإن احتيج للعقلِ في الجميعِ، إلا أنَّ ذكرَهُ هاهنا أمسُّ بالمعنى من الأولِ، إذ بعضُ من يعتقدُ صانعاً للعالَمِ رُبَّما قال: إنَّ بعضَ هذه الآثارِ يصنعُ بعضًا، فلا بدَّ إذًا من التدبرِ بدقيقِ الفكرِ وراجحِ العقلِ(١).

وكذا الشأنُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ إذ كلُ فاصلةٍ منهما وقعت موقعَهَا، ولا يجوزُ التبديلُ بينهما، إذ لا يجوزُ النهيُ عن انتهارِ اليتيم لمكانِ تأديبه، وإنما يُنهى عن قهرِهِ وغلبتِه، كما لا يجوزُ أن ينهرَ السائلُ إذا حُرم، وليُردَّ ردًا جميلاً (٢).

ومن هنا ندركُ أنَّ الفاصلَةَ القرآنيَّةَ جاءت لتؤديَ دورًا قد أُنيطت بأدائِهِ، ولتفيَ بمعنى لا يفي به غيرُها، فلم تكن مجردَ حليةٍ لفظيةٍ وزينةٍ ظاهريةٍ، وإنَّما استدعاها الحالُ وتطلبها السياقُ، فجمعت بذلك بين الفضيلتين، وحازت الشرفين، فلبست بها تلك المعاني الفخمةُ أجملَ ثوبٍ، وارتدت بها أزهى حلةٍ.

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د/حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٥٢٩.

(٢) المرجع السابق ص٥٢٩.

المبحثُ الأولُ:

العلاقةُ بينَ القسمِ والفاصِلَةِ في سورةِ الضُحَى

إنَّ المتأملَ في الكتابِ العزيزِ يلاحظُ أنَّ كثيرًا من سُورِهِ قد بدأتْ بالقسمِ، سواءٌ كان هذا القسمُ بالزمانِ كما في القسمِ بالضحى والليلِ والعصرِ وغيرِها، أو بما له علاقةٌ وارتباطٌ بالزمانِ كالقسمِ بالكواكبِ من الشمسِ والقمرِ والنجمِ، وقد يكونُ القسمُ بالمكانِ كالطورِ والسماءِ، أو بالقرآنِ، أو بحرفٍ من الحروفِ المقطَّعةِ، إلى غيرِ ذلك من أنواعِ القسمِ وصورِهِ، لكن الذي يسترعي الانتباهَ ويدعو للتفكرِ في تلك السورِ، أنَّها عادةً أو غالبًا ما تأتي أكثر آياتها على فاصلةٍ متفقةٍ أو قريبةٍ من فاصلةِ القسمِ الذي بدأت به السورةُ، تأمَّل مثلًا سورةَ النجمِ التي بدأت بالقسمِ بالنجمِ حالةَ هويّه وسقوطِه تجد السورةَ من أولِها إلى آخرها إلا فيما ندر من آياتها قد جاءت فواصلُها متفقةً مع فاصلةِ القسمِ الذي بدأت به السورةُ، وتجد هذه الظاهرةَ كذلك في سورِ: الليل، والضحى، والعصر، والتين، فهل ثَمَّةَ علاقةٌ بين القسمِ الذي بدأت به تلك السورُ والفاصلةُ التي خُتمت بها آياتُها؟ هذا ما أحاول استكشافه من خلال سورة الضحى.

ولكن قبلِ دراسةِ هذه العلاقةِ بين القسمِ والفاصلةِ، أرى أنَّ من تمامِ الفائدةِ أن أشيرَ إلى ما أُثيرَ حولَ القسمِ بتلك الظواهرِ الكونيةِ من شبهةٍ، وتلك الشبهةُ ليست قاصرةً على تلك الجهةِ – أقصد القسمَ بتلك الظواهرِ– وحدهَا، وإنَّما تمتدُ إلى كلِ ما له علاقةٌ بالتمييزِ بين المكيِّ والمدنيِّ، إذ يدَّعِي مثيرو هذه الشبهة أنَّ في القرآنِ أسلوبين متعارضين، لا رابطةَ ولا علاقة بينهما، مما يدلُ – على حد زعمهم– على أنَّه خضعَ لظروفٍ مختلفةٍ، وتأثَّرَ ببيئاتٍ متباينةٍ، وكان مما ادعوه أنَّ القرآنَ أقسمَ بتلك الأشياءِ وكثيرٍ من المخلوقاتِ، وأنَّ القسمَ بالأشياءِ الحسيَّةِ يدلُ على تأثُّرِ القرآنِ بالبيئةِ في مكةَ؛ لأنَّ القومَ فيها كانوا أُميين لا تعدوا مداركُهم حدودَ

الحسِّياتِ، أمَّا بعدَ الهجرةِ واتصالِ النبيِّ بأهلِ المدينةِ، فقد تأثَّرَ القرآنُ بهذا الوسطِ الراقي الجديدِ، وخلا من تلك الأيمانِ الحسِّيةِ الدالةِ على البساطةِ والسذاجةِ.

وهذه الشبهةُ مدفوعةٌ من جهاتٍ:

أولُها: أنَّ أهلَ مكةَ كانوا أشدَ ذكاءً، وأرقى ذوقًا، وأرفعَ منزلةً، وأعلى بيانًا، وكانوا على اتصالٍ بالأممِ المختلفةِ؛ حيث كانت لهم تجارةٌ إلى الشامِ واليمنِ، كما كانت تفدُ إليهم وفودُ العربِ من شتى البقاعِ ومختلفِ القبائلِ، ومن ثم فالقولُ بسذاجتِهِم، و ادعاءُ أنَّ مداركَهم لا تعدو حدودَ الحسِّياتِ، أو زعمُ أنَّهم أقلُ رقيًا وأدنى فكرًا من أهلِ المدينةِ مردودٌ لا يستقيم.

ثانيها: أنَّ القسمَ بتلك الأشياءِ جاء لفتًا لانتباهِهِم، وتحفيزًا لعقولِهم؛ لينظروا فيما حباهم به من نعمٍ، ويتفكروا فيما بين أيديهم من آياتٍ، وما يرونه من ظواهرَ كونيةٍ تدلُهم على وجودِ اللهِ ووحدانيته واستحقاقِهِ وحده العبادَةَ. ومعلومٌ أنَّ المُصابَ بداءِ الشركِ لا سبيلَ إلى إنقاذِهِ إلَّا بمثلِ هذه الطريقةِ المُثلى التي سلكها القرآنُ بعرضِ دلائلِ التوحيدِ من آياتِ اللهِ في الآفاقِ على أنظارِ المشركين.

ثالثها: أن في مضامين تلك الأقسامِ بالحسَّياتِ أسرارًا تنأى بها عن السذاجةِ والبساطةِ، وتشهدُ ببراعةِ المخاطبين بها وتفوقِهم في الفهمِ والذكاءِ والفصاحةِ والبيانِ؛ ذلك أنَّ القسمَ بها كما قلنا إشارةٌ إلى الأسرارِ العظيمةِ التي وضعها اللهُ في تلك الأمورِ حتى صحَّ أن يكون مقسمًا بها، وتلك الأسرارُ لا يدركُها إلا اللبيبُ؛ لأنَّها غيرُ مشروحةٍ ولا مفسرةٍ في القرآنِ الكريمِ، فلا يفهمُها إلا من كمل عقلُه وصحَّ ذوقُه [١].

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط:٣- جـ١/٢٢٠ وما بعدها بتصرف.

وأعودُ إلى ما أنا بصددِ الحديثِ عنه من دراسةِ العلاقةِ بين القسمِ والفاصلةِ، فأقولُ مستعينًا باللهِ:

بدأتْ هذه السورةُ الكريمةُ بالقسمِ بالضحى حالَ إشراقِهِ، والليلِ حالَ سُكونِهِ، فقال سبحانه: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ والضحى: هو ذلك الوقتُ الذي تُشرقُ فيه الأرضُ وتُضاءُ جوانبُها. والليل: هو ذلك الوقتُ الذي يعمُّ فيه الهدوءُ، ويشيعُ فيه السكونُ، وتهدأ فيه النفسُ من شواغلِ الحياةِ وصخبِها.

وقد أطلقَ الضحى وأرادَ به سائرَ النهارِ، ودليلُ ذلك أنَّه قابلَهُ بالليلِ، وقيل إنَّ المرادَ: وقت الضحى، حيث ترتفع الشمس ويعتدل النهار(١).

وعبَّر هنا بسجى دون يَغشى؛ لينبهَ على أنَّ المقصودَ ما في الليلِ من سكونٍ وهدوءٍ، وليس ما فيه من كثافةٍ وظلمةٍ واحتجابٍ.

جاء في المفرداتِ للراغبِ (سَجَى) أي: سكن، وعينٌ ساجيةٌ: ساكنةُ الطرفِ، وسجا البحرُ يسجو سجوا: سكنت أمواجُه، ومنه استعير تسجيةُ الميتِ أي: تغطيتُه بالثوبِ (٢).

وذكرَ الإمامُ الطبريُّ أن "سَجَى" يحتمل معاني عدة، فقد يكون بمعنى: أقبل، أو بمعنى: ذهب، أو بمعنى سكنَ، ثم بيَّن أن أولى تلك المعاني عنده قول من قال معناه: والليل إذا سكن بأهله، وثبت بظلامه، كما يقال: بحر ساجٍ: إذا كان ساكنًا (٣).

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، تحقيق: الإمام/ ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:١/ ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، جـ١٠/٢٢٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق ، ط:١/ ١٤١٢هـ، ص٣٩٩.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:١/١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م جـ٢٤/٤٨٤.

ومنه قول الأعشى الكبير:

أَتُوعِدَنِي أنْ جاشَ بَحْرُ ابنِ عَمِّكُم ... وَبحْرُكَ ساجٍ ما يُوَارِي الدَّعامِصَا (١).

ولا شك أنَّ وقوعَ القسمِ في ابتداءِ السورِ يُعدُّ عاملًا من عواملِ جذبِ الانتباهِ والتأثيرِ في النفسِ؛ إذ به يتمُ تهيئتُها لتلقي ما يقال، خاصةً وأنَّ القسمَ في أولِ السورِ يُضفي على الألفاظِ رونقًا ويزيدُها قوةً، فيكونُ ذلك القسمُ كالغرةِ في جبهةِ الفرسِ لاسيما وقد أتى بما يألفه العربُ(٢)

وقد نبَّه الإمامُ الرازيُّ عند تفسيره للحروفِ المقطَّعةِ في فاتحةِ سورةِ العنكبوت، على أنَّ المتكلمَ قد يقصدُ إلى تقديمِ شيءٍ على المقصودِ؛ ليلفتَ المخاطبَ إليه بسببِ ذلك المُقدَّمِ، ثمَّ يشرعُ في مقصودِهِ، وقد يكون ذلك المُقدَّمُ كلامًا، مثل: النداء وحروف الاستفتاح، وقد يكونُ المُقدَّم صوتًا كمن يصفِّقُ ليُقبلَ عليه السامعُ، إلى غير ذلك من أدوات التنبيهِ ووسائلِهِ والتي منها القسمُ(٣).

وفي هذا المعنى يقولُ الإمامُ عبدُ القاهرِ– رحمه الله– : "وجملةُ الأمر أنَّه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غُفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن

(١) ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق د/ محمد حسين، مكتبة الآداب ص١٥١.
(جاش البحر: غلا بالماء واضطرب. ساجٍ: ساكن لقلة مائه. الدعامص : جمع دعموص وهي دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها.)

(٢) الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب / دار العلوم الإنسانية – دمشق، ط:٢/ ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م، ص٢١٠.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٣/١٤٢٠هـ، جـ٢٥/٢٤.

ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار" (١).

وإذا كان سبحانه قد أقسمَ بالضحى بما فيه انكشافٍ ووضوحٍ وظهورٍ، وبما فيه من إقبالٍ على الحياةِ، وأقسم بالليلِ بما يعتريه من سكونٍ وهدوءٍ، فإنَّ الفاصلةَ التي خُتمت بها الآياتُ الكريمةُ جاءت داعمةً لهذا المعنى ومؤكِدَةً عليه؛ حيث خُتمت الآياتُ الكريمةُ بفواصلَ مقفاةٍ بحرفِ الألفِ، وهو حرفُ مدٍ يمتدُ به الصوتُ والنفسُ، ويخرج معه الهواءُ دون أن يعوقَه عائقٌ أو يحجزَه حاجزٌ، حتى لكأنَّ هذا الهواءَ الخارجَ زفرةُ مكلومٍ دفعها من صدرِه فانكشف بعدها حزنُه، وذهب عنه همُه و ألمُه، ووجد فيها ما يجده الكون في الضحى من ظهورٍ بعد احتجابٍ، وإشراقٍ بعد ظلمةٍ، وخفةٍ بعد كثافةٍ، وما يجده في الليلِ من هدوءٍ بعد صخبٍ، وراحةٍ بعد عناءٍ وتعبٍ، فهشت لذلك نفسُه، وسكنت جوارحُه، واطمأن قلبُه.

وبالتأملِ نجدُ أن مفرداتِ السورةِ كلِّها – وليست الفاصلةُ وحدة– قد جاءت لتبُثَ هذا المعنى وتؤكدَ عليه، فهي تُشيعُ جوًا من الطمأنينةِ والسكينةِ وتهدئةِ الروعِ وتثبيتِ القلبِ والربطِ على فؤاده–ﷺ–، لاسيما وقد فتر عنه الوحيُ، فداخلته الوحشةُ، ودبَّ إلى قلبِه الحزنُ، فجاءت تلك الآياتُ لتسليتِه وتخفيفِ وطأة الحزنِ على قلبِه. والقارئُ لهذه السورةِ يلامسُ تلك الراحةَ، ويستشعرُ هذا الهدوءَ، ويحسُّ بتلك السكينةِ.

دلالةُ المقابلةِ في القسمِ بين الضُحَى والليلِ

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، تح/محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط: ٣/ ١٤١٣هـ،١٩٩٢م، ص١٣٢.

الطباقُ و كذا المقابلةُ من الأمورِ الفطريةِ التي لها علاقةٌ وثيقةٌ ببلاغةِ الكلامِ، إذ الضدُّ أقربُ خطورًا بالبالِ عند ذكرِ ضدِّهِ، فالطباقُ ينقلُ غرضَ المتحدثِ ويبرزُه في صورةٍ قويةٍ مؤثرةٍ (١).

" والمقابلةُ بين المعاني تزيدُها في الفكرِ وضوحًا، وفي النفسِ رسوخًا... وما ورد في القرآنِ من طباقٍ ومقابلةٍ لم يجئ اعتسافًا، وإنما جاء المعنى مصورًا في هذه الألفاظِ، التي أدت المعنى خيرَ أداءٍ وأوفاه" (٢).

وبالتأملِ يتبينُ لنا أن المقابلةَ بين الضُحَى بإشراقِه والليلِ بظلمتِه، قُصدَ بها التنبيهُ على سنَّةِ الله في تبدلِ الأحولِ وتغيرِها من طورٍ إلى طورٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، فلا ثباتَ ولا استقرارَ لشيءٍ على الدوامِ، بل الأحوالُ مُتعاقبةٌ، وصروفُ الدهرِ مُتباينةٌ، ويدُ القدرِ غالبةٌ. وفي تلك المقابلةِ كذلك تسليةٌ للنبيِّ -ﷺ- وقد فترَ عنه الوحيُ بعد أن كان مُتتابعًا، وحثٌ له على الاستجابةِ لتلك السننِ الإلهيةِ، والصبرِ على التنقلِ بين تلك المقاماتِ وهذا الأحوالِ.

كما أفادت تلك المقابلةُ كذلك الردَ على المشركين، والدحضَ لزعمهم، والنفيَ القاطعَ لمقالتِهم؛ ذلك أنَّهم تقبَّلوا هذا الاختلافَ في الأوقاتَ، والتنوعَ في مظاهرِ الكونِ من ليلٍ يعقبه نهارٌ، وعلموا أنَّ هذا الاختلافَ سنَّةٌ كونيةٌ لا تخلو عن حكمةٍ، إذ به يحصلون على السكنِ والراحةِ ليلًا، وعلى معايشهم بالسعي والحركة نهارًا، فمن ثَمَّ كان ينبغي أن يتقبَّلوا ما يجري على سيدنا محمدٍ -ﷺ- من نزولِ الوحيِ وفترتِه. فالقسمُ هنا لافتٌ إلى صورةٍ مُشَاهَدَةً وواقعٍ محسوسٍ، يشهدُ به الناسُ إشراقَ الضوءِ وسطوعَه في ضحوةِ

(١) الصبغ البديعي د/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي، القاهرة ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م، ص٤٧١.

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، نهضه مصر، القاهرة ٢٠٠٥م، ص١٤٤.

النهارِ، ثم فتورَ الليلِ إذا سكن وسجى. وتتعاقبُ هاتان الظاهرتان كلَ يومٍ دون أن يكون في تواردهما ما يبعثُ على الدهشة أو الإنكار، بل دون أن يخطر بالنفسِ أنَّ السماء قد تخلت عن الأرض بأن أسلمتها إلى وحشةِ الليلِ بعد تألق الضوءِ في ضحى اليوم نفسهِ، وإذا كان الأمرُ كذلك فأي عجبٍ إذن في أن يجئ بعد أنسِ الوحي وتجلي نورِهِ على النَّبي -ﷺ-، فترةُ سكونٍ للوحيِ، على نحو ما نشهد من سجو الليلِ بعد تألقِ الضحى؟ وفيم القولُ أو الظنُّ بأنَّ سيدنا محمدًا -ﷺ- ودَّعهُ ربُه وقلاه؟ (١)

وقد أشار الإمامُ ابن عاشور إلى وجود مناسبةٍ دقيقةٍ في القسم بالضحى والليل في هذا المقام؛ ذلك أن الضحى هو وقت انبثاق نور الشمس وتلك الحالة تمثيل لنور الوحي بما يحصلُ به من اهتداءٍ وبما يتحقق به من خيرٍ ونفعٍ، ولأنَّ الليل هو ذلك الوقت الذي كان يقوم فيه النَّبي-ﷺ- بالقرآن، ولذلك قُيِّدَ اللَّيْلُ بِظَرْفِ إذا سَجى(٢).

وإضافةً لما سبق فإنَّ تلك المقابلةَ بين هذين الزمانين الليلِ والنهارِ باعتبار أنَّ المرادَ بالضحى النهار كله أفادت تلك المقابلة تمام العناية منه -تعالى- بنبيه -ﷺ-وعدم تخليه عنه أو تركه له في أيَّة ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، فالعناية به قائمةٌ متصلةٌ لا تنقطع عنه بحالٍ.

وقد تناول الإمامُ ابنُ القيم هذه المقابلةَ بين الضحى والليل فعدَّد فوائدَها وكشفَ عن معانيها، ويمكن إجمال مقالته فيما يأتي:

---

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزُّرْقاني، جـ١/٢٢٤. وينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د/عائشة عبد الرحمن، دار المعارف ط:٣، ص٢٥٠.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤هـ، جـ٣٠/٣٩٥.

أولًا: أنَّ هناك دقةً تامةً في توظيف الألفاظ واختيارها لتفي بما تقصد إليه من معانٍ وما ترمي إليه من أغراضٍ، وتتجلى هذه الدقةُ فيما اشتمل عليه القسم من مطابقة بين نور الضحى الذي يوافي بعد ظلامٍ، ونور الوحي الذي وافاه بعد احتباسٍ، فتلك الحالة تمثِّلُ تلك.

ثانيًا: تلك المقابلةُ تشير إلى أنَّه تعالى كما فلق ظلمة الليل عن ضوء النَّهار، فإنَّه كذلك يفلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فأخرج بذلك المعقول في صورة المُحَسّ.

ثالثًا: أن تلك المقابلةَ تشير إلى فيض رحمته تعالى بعباده و لطفه بهم؛ حيث لم يتركهم في ظلمة الليل سرمدًا، بل جعل لهم النهار ليهتدوا فيه إلى مصالحهم وكسب معاشهم، وإذا كان قد كشف لهم بضوء النهار حُجبَ الليل وظلامَه فأزاح عنهم وحشته تحقيقًا لهذه الغاية البسيطة، فمن باب أولى لم يتركهم في ظلمة الغي والجهل، بل هداهم بنور الوحي والنُّبوة إلى مصالحهم في دنياهم وأُخراهم[١].

(١) التبيان في أيمان القرآن لابن القيم، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: ١/١٤٢٩هـ، ص١١١.

المبحثُ الثاني:

دورُ الفاصلةِ في تأكيدِ المعنى وتقويتِهِ

إنَّ ظاهرةَ التوكيدِ إحدى الظواهرِ اللغويَّةِ والبلاغيَّةِ التي لاقت عنايةً كبيرةً، وشغلت حيزًا واسعًا في الدرسِ اللغويِّ والبلاغيِّ؛ لما لها من أثرٍ في إثباتِ المعنى وتقويتِه بل وتقريرِهِ؛ إذ به يُجردُ المعنى مما قد يلابسُه من شكوكٍ، أو يحيطُ به من لبسٍ، أو يخالطُه من ريبٍ، أو يدفعُه من إنكارٍ.

والتوكيدُ قد تشعبت طرقُه، وتعددت وسائلُه، وتباينت أساليبُه، فمن أدواتِه ما يختصُ بالأسماءِ: كإنَّ، وأنَّ، والباء ومن وإن التي تُزاد بعد أدوات النفي أو الاستفهام المفيد للنفي، ومنها ما يختصُ بالأفعال: كنوني التوكيد وقد، ومنها ما يُستعمل معهما: كأدوات القصر فهي أدوات يُقصد بها تأكيدُ المعنى وتقويتُه، وهناك التوكيدُ بالتقديم وهو أيضًا أحدُ أساليب القصر، ثم هناك التوكيدُ بالتكرار، وبالمفعول المطلق، وبالنعت، وبالحال، إلى غير ذلك من الأدوات والأساليب، ولاشك أنَّ لكل أداةٍ من هذه الأدوات، ولكل أسلوبٍ من تلك الأساليب سياقٌ خاصٌ، وهذا لا شك دليلٌ على سعة اللغة، وثراء مادتها، ودقة أدواتها، وتنوع أساليبها، مما يتيح للمتكلم التعبير عن معناه في صورةٍ من اللفظِ لائقةٍ، وعبارةٍ رائقةٍ، وأسلوبٍ ممتعٍ، وهو يدل كذلك على مرونة اللغة وتجددها، وكونها نابضةً بالحياة، مفعمةً بالنشاط ، موائمةً لما قد يطرأ من تغير[1].

(١) وقد تناول السيوطي الأدوات المفيدة للتوكيد في ثنايا حديثه عن معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر(ينظر: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، جـ٢/١٦٨وما بعدها.

وبالتأمل في السورة الكريمة نجد أنَّ الفاصلةَ قد جاءت مؤكِدَةً للمعنى في قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) إذ كان يكفي في غير القرآن التعبير بنحو: ما ودعك ربك، والآخرة خير لك، ولسوف يعطيك، لكن مثل هذا التعبير لا يفي بما قصده القرآن من معالجةٍ روحيةٍ، وطمأنةٍ للنبي-ﷺ-، ناهيك عن هذا التأكيد وتلك الزيادة في المعنى التي أفادتها الفاصلة.

إنَّ الفاصلة في تلك الآيات الثلاث قد أدت عدة وظائف لا يمكن إغفالها أو تجاوزها:

الوظيفة الأولى: وظيفةٌ لفظيةٌ تمثلت في تلك العذوبةِ وهذا الإيقاعِ الذي أضفته الفاصلة على تلك الجمل الثلاثة، ولو أنَّك نزعت تلك الفواصل واستغنيت عنها لاستشعرت ثقلاً ولوجدت جفاءً، ولتدرك هذا المعنى قارن بين نظم الآيات الكريمة وبين أن تقول: ما ودعك ربك، والآخرة خير لك، ولسوف يعطيك، وإن كانت المقارنة لا تصلح من أول الأمر.

" والقرآن حين يراعي الفاصلةَ، ويبقى على تنغيمها إنَّما يحفظُ وسيلةً من أقوى وسائلِهِ في التأثير؛ لأنَّ رنين الكلماتِ وجرسَهَا، وتوافقَ إيقاعاتها لغةٌ تُغلغل في النفسِ، والضمير وتسمو بالروح إلى آفاق قدسية، فتأخذها نشوةٌ يحسها من يرتل هذه الآيات ترتيلاً يتهدج فيه صوته، ويتماوج مع ألحانها، ثم ينتهي إلى هذه الفواصل فيجد عندها القرار" (١).

الوظيفة الثانية: وظيفةٌ نفسيةٌ تمثَّلت فيما أدخلته تلك الفواصل على النفس من إيناسٍ، وما شملته بها من حنوٍ وعطفٍ، وما أودعته فيها من

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط:٧، ص٣٥٩.

سكينةٍ، ولتقف على ذلك تأمل قوله:(وما قلى) بعد قوله: (ما ودعك) وقوله: (ترضى) بعد قوله (ولسوف يعطيك) أو لستَ تجد في نفي القلى بعد نفي الوداع مسحًا على النفس المكلومة لتستشعر معية الله ورحمته، فتجد أمنها من بعد خوفٍ، وأنسها من بعد الوحشة، حيث قد أمنت من القلى والهجر والترك، ثُمَّ ألستَ تجد في التعبير بالرضا بعد الوعد بالعطاء مزيد سعادةٍ وبشرٍ وإقبالٍ؛ إذ قد أفاد هذا التعبير امتداد العطاء وعدم انقطاعه، وإلا فكيف ترضى النفس بعطاءٍ منقطعٍ غيرِ دائمٍ.

الوظيفة الثالثة: وهي وظيفةٌ ذات صلةٍ وعلاقةٍ بالمعنى، تمثَّلت في ذلك التأكيد الذي أحاط بالمعنى كي يَثبُتَ في النفس، ويقرَّ في الذهن، وفيما يأتي أقف مع كل آيةٍ من تلك الآيات على حده لندرك وظيفة الفاصلة في توكيد المعنى وتقويته.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾

الوداعُ: الترك والمفارقة، والتودّعُ: تركُ النّفس عن المجاهدة، وفلان متّدع ومتودِّع، وفي دعةٍ: إذا كان في خفضِ عيشٍ، وأصله من التّرك. أي: بحيث ترك السّعي لطلب معاشه لغناه، والتّوديع أصله من الدَّعة، وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله عنه كآبة السّفر، وأن يبلّغه الدّعة، وعبَّر عن التّرك به في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ والقَلي: شدة البغض[1].

وذكر الزمخشريُّ وابن عطية أنَّ ﴿وَدَّعَكَ﴾ مبالغةٌ في الوداع، لأنّ من ودَّعك مفارقًا فقد بالغ في تركك [2].

(١) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص٦٨٣ و ص٨٦١.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري جـ٧٦٦/٤، والمحرر الوجيز لابن عطية جـ٤٩٣/٥

ويلزم منه أن يكون المنفيَّ التركُ المبالغُ فيه دون أصل الترك مع أنَّ الظاهر نفيُه مطلقًا، ويمكن حمله على إنَّه إنَّما نفى ذلك لأنَّه الواقعُ في كلام المشركين فعبَّر بذلك مجاراةً لهم ، أو أنَّ المبالغة تعود على النفي، فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فُصّلت:٤٦] وقيل: إنَّ المعنى ما قطعك قطع المودع، على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك، وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى؛ فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته [١]

وقرئ «وَدَعَكَ» بتخفيف الدال أي ما تركك، وذكر ابن جنِّي أنَّها قراءةُ النَّبي-ﷺ- وأنَّها قليلةُ الاستعمالِ. حيث استغنوا عن وذر وودع، بقولهم: ترك، وقد استعملوا مضارعة، فقالوا: يدع [٢].

وقيل: إن وَدَعَ ليس بمخففٍ بل هو فعلٌ برأسه بمعنى ترك، وقراءةُ النَّبي-ﷺ- وكذا استعمال العرب له يعكِّر على ما ذكره النحاة من إماتة العرب لماضي يدع ويذر ومصدرهما واسم فاعلهما واسم مفعولهما، واستغنائهم بما ليترك من ذلك. فقد ورد عن النبي -ﷺ- وهو أفصح العرب قوله: (لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ) [٣].

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١/١٤١٥هـ، جـ١٥/٣٧٤.

(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط:١٩٩٩م جـ٢/٣٦٤، ٣٦٥.

(٣) صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١/ ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م، جـ٧/٢٥ حديث رقم: (٢٧٨٥) ولفظه: (لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَيَكُونُنَّ من الغافلين).

وقال الشاعر:

ثُمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ... فَرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ(١).

ومن ثَمَّ فلا عبرة بما ذكره النحاة أو ادَّعوه من إماتة العرب للفعل وَدَعَ؛ لوروده في الحديث الشريف، وفي كلام العرب وشعرهم (٢).

وهذه الجملة واقعة في جواب القسم، والقسم أحد وسائل التوكيد، فقد أقسم بالضحى والليل ليؤكد ذلك المعنى في قلب النَّبي-ﷺ- من أنَّه تعالى ما تركه ولا قلاه.

فالقسم تأكيدٌ للخبر، وردٌ على المشركين، وإبطالٌ لدعواهم، وتعريضٌ بهم؛ إذ قد زعموا أنَّ رب محمد-ﷺ- ودعه وقلاه (٣).

وبالتأمل في مفردات الآية ندرك أن التوديع بمعنى: الترك . أدنى من القلى بمعنى: البغض. إذ التوديع لا يكون إلا عن محبةٍ، فالمودع محبٌ لمن يودعه، ومن ثَمَّ فنفي الوداع يقتضي من باب أولى نفي القلى والبغض، وعليه فلم يكن النظم في حاجةٍ لتلك الفاصلة، ولم يكن بحاجةٍ لنفي القلى بعد نفي التوديع، ولكنَّ الفاصلة هنا جاءت ردًا على المشركين في زعمهم ذلك، ومبالغةً في تبكيتهم، إذ لما نفى التوديع قد علموا ضرورةً نفيَ القلى، لكنَّه مع ذلك نفاه على جهة المكايدة لهم – إن صح التعبير– والإزراء بهم، وتأكيدًا على تمام المحبة منه – تعالى– لنبيه-ﷺ-.

---

(١) لم أقف على قائله. وهو من شواهد المفسرين، واستشهد به ابن حجر في فتح الباري(ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، جـ١٣/٢٦٠).

(٢) روح المعاني للألوسي، جـ١٥/٣٧٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٣٠/٣٩٤.

ثم جاء التعبير بلفظ الرب دون لفظ الجلالة مضافًا إلى الضمير بما يتضمنه هذا التعبير من تلطفٍ في خطابه-ﷺ- ورفقٍ به، وبما تفيده تلك الإضافة من مزيد تشريفٍ وتكريمٍ، فكيف يُودِّعُه أو يبغضه وهو من تولاه وتعهده بالرعاية والتربية بما أفاض عليه من نعم، وما أولاه من آلاء؟! وإذا كان التعبير بلفظ الربِّ مضافًا إلى ضميره-ﷺ- قد قُصد به تشريفه وتكريمه. فإنَّه من جهة أخرى أفاد توبيخَ المشركين والتعريضَ بهم؛ إذ كيف استقام في عقولهم أن يدَّعوا ذلك الادعاء ويزعموا ذلك الزعم من ترك الله لنبيه وبغضه له؟!

الآية الثانية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

فإذا ما انتقلنا إلى الآية الثانيةنجد كذلك التأكيد يسري في أوصالها، ثمَّ جاءت الفاصلة داعمةً لهذا التأكيد بما أحدثته من طباقٍ بين كلمتي الآخرة والأولى.

فالواو عاطفة، واللام واقعةٌ في جواب قسمٍ محذوفٍ، والجملةُ من القسم المحذوف وجوابه معطوفةٌ على جملة جواب القسم المتقدم، داخلةٌ في حيزها، قد اكتسبت ما اكتسبته من تحققٍ وتأكيدٍ(١).

وذكر أبو حيان أنَّ اللامَ ابتدائيةٌ أكدت مضمونَ الخبر، وعليه فالجملةُ ابتدائيةٌ وليست معطوفةً على جملة جواب القسم، حيث قد نفى القلى، ثم ابتدأ فبشره بأنَّ الآخرة خيرٌ له من الأولى، ومن ثم فالواو عاطفةٌ على جملة والضحى(٢).

(١) ينظر: المجتبى من مشكل إعراب القرآن، جـ١٤٦٣/٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط جـ٤٩٧/١٠. وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور جـ٣٩٧/٣٠.

ثم جاءت الفاصلة التي خُتمت بها الآية الكريمة فأكسبت اللفظ جمالًا، وزادت المعنى قوةً وتأكيدًا، أما الجمالُ اللفظيُّ فناتجٌ عما أحدثته الفاصلة من إيقاعٍ، وما أدخلته على العبارة من عذوبةٍ وسلاسةٍ، فجعلتها طيعةً للسان، سهلةً على الآذن، منشطةً للنفس والوجدان.

" ولاشك أن هذا الجرسَ الموسيقيَّ المتتابعَ في فواصل القرآن ترك في نفوس العرب والمكابرين والمعاندين أثرًا كبيرًا ووقعًا شديدًا عند سماعهم لهذه الآيات الموجزة ذات المعاني المستفيضة، ولعل ما في ذلك التدافع في الآيات القصيرة ذات النغم المتوافق الناجم عن تناسب الفواصل ما ينبِّه حواس السامع إلى الاستجابة لذلك الجرس والتفاعل معه والتأثر به[1].

وأما قوة المعنى فناتجةٌ عن هذا الطباق بين كلمتي الأولى والآخرة، فقد أفسح هذا الطباق للعقل المجال؛ ليفكر في الحياتين فيدرك ما بينهما من تفاوتٍ وبعدٍ، يقتضي الزهدَ في الأولى بما فيها من ابتلاءاتٍ ومنغصاتٍ ومكدراتٍ، والإقبالَ على الآخرة بما فيها من نعيمٍ مقيمٍ، وبما تشتمل عليه من رحمة الله ورضوانه، وهذا لا شك متوافقٌ مع المعنى العام الذي تقصد إليه السورة الكريمة من تسلية النَّبي-ﷺ- والربطِ على قلبه والتثبيتِ لفؤاده.

" فالطباق هنا بما فيه من جمعٍ بين الأضداد، وبما لديه من قدرةٍ على الجمع بين المتنافرات في موضعٍ واحدٍ قد أحدث في الذهن ضربًا من الانتقال السريع بين الضد وضده، والشيء ومقابله. وحين يتحقق للإدراك هذه الإحاطة بالمتباعدات في الواقع، على هذا النحو السريع، وعلى هذه الصورة التي يتجاور فيها الماء والنار، والأبيض والأسود، يأنس شيئًا من البهجة والرضا. ويبدو أن المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها على تنشيط الفعالية الإدراكية. كما يتأتى شيء من هذه الجمالية من التعجب

(١) فواصل الآيات القرآنية، د/ كمال الدين عبد الغني المرسي، المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية، ط:١/١٩٩٩م ص٥٥.

والإدهاش اللذين يحدثان للذهن عند إدراك الأفعال المتضادة المنسوبة إلى فاعل واحد" (١).

ومن هنا ندرك أنَّ الفاصلة لم تأت زخرفةً للألفاظ وتنميقًا للعبارات بمعزلٍ عن المعنى، وإنما جاءت لدعم المعنى وتقويته، فبدونها يتهاوى المعنى فيفقد قوته، ويختل النظم فيفقد جماله ويُسلبُ رونقه.

ونلاحظ كذلك في الآية الكريمة أنه قد تقدمت الآخرة على الأولى، وهذا التقديم إلى جانب ما فيه من مراعاةِ الفاصلةِ وجمالِ النظمِ، فإنَّه كذلك يوحي بشرفِ المقدمِ وفضلِهِ.

كذا في العدول عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة. مزيد إيناس وبشارة للنبي-ﷺ- وليس القصد إلى رعاية الفاصلة، هو وحده الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى. وإنما اقتضاه المعنى أولاً، في سياق البشري والوعيد، إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى (٢).

الآية الثالثة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾

وهذه الآية وعدٌ من الله تعالى لنبيه بالعطاء، وأنَّ هذا العطاء ممتدٌ غيرُ منقطعٍ؛ إذ لا يتحقق الرضا بالعطاء المنقطع.

واختلفوا في ماهية ذلك العطاء، فقيل: عُرض عليه -ﷺ- ما سيفتح لأمته بعده وما ينالونه من خير، وقيل: رأى ما يعطى وما أُعد له في

(١) المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م. ص٥٦١.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د/عائشة عبد الرحمن، دار المعارف ط:٣، ص٢٧٨.

الآخرة، وقيل: الشفاعة لأهل بيته إذ لا يرضى وواحد منهم في النار، أو الشفاعة العامة لأمته، وقيل: الحوض [١].

والحق أنَّ الآية عامةٌ شاملةٌ لكل أنواع الخير و صور العطاء، دنيويًا كان أو أخرويًا، له أو لأهل بيته ولسائر أمته ومن آمن به.

وفي حذف المفعول الثاني للفعل يعطي ما يؤكد هذا المعنى، فإنَّ الحذفَ فيه مفيدٌ لتعميم العطاء وتنوعه، فهو شاملٌ لكل ما يحبه ويرضيه-ﷺ- [٢].

وقد أشار إلى ذلك الإمامُ الزمخشريُّ- رحمه الله- فقال: " موعدٌ شاملٌ لما أعطاه في الدنيا من الفلح والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجًا، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام، وفشوّ الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادّخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله" [٣].

وعبَّر بقوله: (يعطيك) دون يعطيكم، مع أن تلك العطاءات منها ما هو له، ومنها ما هو لأمته؛ تنبيهًا على أن ما كان منها لأمته إنَّما استحقته بسببه -ﷺ- إكرامًا له وإجلالًا لقدره، وفي التعبير بـ (سوف) دون السين في

(١) ينظر: تفسير الطبري جـ٢٤/٤٨٧. وينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي جـ١٠/٢٢٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير جـ٣/٣٩٨ بتصرف.

(٣) الكشاف جـ٤/٧٦٦، ٧٦٧.

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ بشارة له بطول الأجل بعد ما قاله المشركون من أنَّ ربه قلاه وودعه، وأنَّه سيموت فينتهي أمره ويقضى على دعوته [١].

وذكر الزمخشري أنَّ اللام الداخلة على سوف هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف. تقديره: ولأنت سوف يعطيك، وذلك أنَّها لا تخلو من أن تكون لامَ قسمٍ أو ابتداءٍ، فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد، فبقي أن تكون لامَ ابتداءٍ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك[٢].

وقيلَ هيَ للقسمِ، وقاعدةُ التلازمِ بينَ لام القسم ونونِ التأكيدِ قد استثنى النجاة منهَا صورتينِ، إحداهُمَا أنْ يفصلَ بينَها وبينَ الفعلِ بحرفِ التنفيسِ كهذه الآية، والثانيةُ أن يُفصلَ بينهما بمعمولِ الفعلِ كقولِه تعالَى ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[آل عمران: ١٥٨] وقال أبُو علي الفارسيُّ ليستْ هذه اللامُ هيَ التي في قولِكَ إنَّ زيداً لقائمٌ بلْ هيَ التي في قولِكَ لأقومَنَّ ونابتْ سوفَ عن إحدَى نونِي التأكيدِ فكأنَّه قيلَ وليعطينكَ[٣].

وسواء كانت لام الابتداء أو القسم فإنَّ المقصدَ منها تأكيدُ مضمون الجملة، والدلالةُ على تحقق الوعد ووقوعه لا محالة وإن تأخر.

وحرف الاستقبال لإفادة أنَّ العطاء مستمرٌ غيرُ منقطعٍ، وفاء التعقيب في قوله: (فَتَرْضى) لإفادة أنَّ ذلك العطاءَ عاجلُ النفع بحيث يحصل به الرضا عقب حصوله مباشرةً دون ترقب لحصول نفعه[٤].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، جـ١٩٥/٣١ بتصرف.

(٢) الكشاف، جـ٧٦٧/٤.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ١٧٠/٩.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٣٩٨/٣ بتصرف.

وحرف التنفيس إلى جانب دلالاته على دوام العطاء واستمراره فإنَّه كذلك يؤكد على تحقق وقوعه وحصوله، وقد نبه على ذلك الإمامُ الزمخشريُّ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٧١] فذكر أن السينَ مفيدةٌ وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد، كما في قولك: سأنتقم منك يوماً، تعنى أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ومن ثَمَّ فسوف هنا دلت على المعنيين معا تحقق الفعل وعدم انقطاعه(١).

وبقول الزمخشري من إفادة السين وسوف تحقق الوقوع ووجوب ما بعدهما محالة وإن تأخر قال به الراغب في مفرداته (٢).

ورد ذلك أبو حيان فالسين وسوف عنده إنَّما تدلان على تخليص المضارع للاستقبال فقط. كما أشار إلى أن ما ذهب إليه الزمخشريُّ فيه دفينةٌ خفيةٌ من الاعتزال؛ إذ يشير به إلى أنَّه يجب على الله تعالى إثابة الطائع، كما تجب عقوبة العاصي(٣).

والأكثر في (سوف) أن تستعمل في الوعيد والتهديد، ويقل استعمالها في الوعد كما في الآية التي معنا. أما السين فإنَّ الأكثر فيها أن تستعمل في الوعد، ويقل استعمالها في الوعيد.(٤)

(١) ينظر: الكشاف، جـ٢/٢٨٩.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب، ص٤٣٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط، جـ٥/٤٦٠.

(٤) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، جـ٢/١٧٤.

ومما سبق ندرك أنَّ الآيةَ الكريمةَ غنيةٌ بوسائل التأكيد حيث بدأت بلام الابتداء أو القسم على ما ذكرته من خلافهم في نوعها، ثم التعبير بسوف المفيدة لتحقق العطاء ودوامه وعدم انقطاعه على ما ذكره الزمخشري من إفادتها لتلك المعاني، ثم حذف المفعول الثاني للفعل (يعطيك) بما يفيده من تنوع العطاء وما يؤكد عليه من شمولٍ لسائر النعم، ثم التعبير بلفظ (ربِّ) مضافًا إلى ضميره-ﷺ-، وتلك الأدوات قد أدت دورها في تأكيد مضمون الجملة وإبراز المعنى، بحيث تأنس نفسه-ﷺ- ويسري إليها السرور، ويحصل لها البشر، وتتحقق لها السعادة. فالجملة تفيض بكل ما يحقق له الرضا، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الفاصلة اكتفاءً بهذه الوسائل التي أكَّدت المعنى ودلَّت على تحققه وحصوله، لكنَّ القرآن آثر أن يجمع بين دلالة الفحوى ودلالة اللفظ، ومن ثم جاءت الفاصلة ﴿فَتَرْضَى﴾ مُتوِجَةً لذلك كله فربطت بين العطاء الذي وُعد به ورضاه بذلك العطاء، وفي هذا ما فيه من تطيب لخاطره-ﷺ- وتبكيت لشانئه.

وبدراسة هذه الفواصل لتلك الآيات يظهر لنا مدى العلاقة بين الفاصلة القرآنية وما سبقها، ومدى التناسب والتلاؤم بين صدر الآيات وعجزها، لا في تلك الآيات وحدها بل في القرآن كله، وأنَّ ذلك التناسب لم يكن قاصرًا على مجرد التناسب الصوتي بل تجاوزه إلى التناسب الدلالي؛ حيث جاءت الفاصلة في حقلٍ دلاليٍ مناسبٍ وبيئةٍ من الألفاظ المتناغمة، وهذا ما نبه عليه الزركشي في دراسته لباب ائتلاف الفواصل مع ما يدل عليه الكلام [١]

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، جـ١/٧٨.

المبحثُ الثالثُ:
الحذفُ رعايةً للفاصلةِ وإقامةً للمعنى

تناول الإمامُ عبدُ القاهرِ – رحمه الله – ظاهرةَ الحذفِ، وعُني بدراستها؛ لما له من دورٍ في بلاغةِ النظم ودقةِ التصوير، ولما له من أثرٍ في المفاضلة بين نظمٍ و نظمٍ، وتقديمِ أحدهما على الآخر، فقال مبينًا فضله: " وهو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنَّك ترى تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما يكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما يكون بيانًا إذا لم تبن" (١).

وتعدُّ هذه الظاهرة من أهم الظواهر المميزة للعربية؛ ذلك أنَّ عناصر الجملة فيها قد تُذكر جميعًا إذا ما اقتضى السياق ذلك؛ دفعًا للبس ورفعًا للإيهام، وقد يحذف بعضها اكتفاءً بذكر البعض واعتمادًا على دلالة السياق، وهذا لاشك جعلها لغةً حيويةً طيعةً؛ إذ أتاحت التصرف بحذف بعض المفردات حفاظًا على وزن الشعر وموسيقى القوافي، فقد يلجأ الشاعر إلى حذف المبتدأ أو الخبر، أو الفاعل أو الفعل أو المفعول إلى غير ذلك من العناصر التي تقوم عليها الجملة، دون أن يكون ذلك الحذف مُفسِدًا للمعنى، أو مخلًا بالمراد(٢).

وهذا بدوره جعل للشعر العربي تفردًا؛ إذ تمكن بهذا الحذف من إقامة الوزن والمحافظة على القافية، فالشعر في كثيرٍ من اللغات قد يتحقق فيه الإيقاع، دون الأوزان ولا القافية، فقلما تلاحظ القافية في الشعر المسرحيِّ، وقد تلاحظ القافية دون الوزن المطرد في الشعر الغنائيِّ، أما اطراد الوزن

(١) دلائل الإعجاز ص١٤٦.

(٢) ينظر: تجديد النحو د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط.٦، ص٢٣٥ بتصرف.

وانتظام القافية فهو من خصائص العربية دون غيرها من لغات العالم أجمع(١).

وبالنظر في سورة الضحى نلاحظ أنَّها اعتمدت على الحذف في بعض فواصلها، وقد جاء هذا الحذف مؤديًا لوظيفتين: أحدهما جمالية تمثلت في رعاية الفاصلة، وما أدخلته تلك المراعاة على الألفاظ من تناغمٍ، وما أحدثته من إيقاعٍ، والأخرى معنوية تمثلت في إقامة المعنى وتأديته والوفاء به.

وتلك الفواصلُ القرآنيَّةُ باعتبارها من وسائل التحسين اللفظيِّ، فإنَّ من نافلة القول أن ننبه هنا إلى أنَّها إلى جانب تلك الوظيفة اللفظية قد استدعاها الحال وتطلبها المقام، وقد ذكر السيوطيُّ أن بعض الأدباء قد زلَّ، فقال في قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات:١٢٥] لَوْ قَالَ: "وَتَدَعُونَ" لَكَانَ فِيهِ مراعاةٌ للتجنيس، وأجاب عن ذلك ابن الزملكاني بأنَّ التجنيس تحسينٌ، وإنَّما يُستعمل في مقام الوعد والإحسان لا في مقام التهويل(٢).

وتلك الإشارة من ابن الزملكاني، والتي نقلها عنه السيوطي، تنبهنا إلى أنَّ القرآن لا يلجأ لمثل هذا التحسين إن كان من شأنه أن يهضم المعنى أو يخلَّ بالمقام، إذ لكل مقامٍ لونٌ من التعبير خاصٌ، والخلط بينها مؤدٍ لا محالة إلى فساد المعنى وسقوطه.

ونقف هنا مع تلك الفواصل في سورة الضحى التي اعتمدت على الحذف فألبسها ثوبَ حسنٍ و جمالٍ، وأورثها بلاغةً، وأكسبها دقةً.

(١) ينظر: اللغة الشاعرة للعقاد، نهضة مصر ١٩٩٥م، ص٢٢ بتصرف.

(٢) الإتقان للسيوطي، جـ٣/٣١٣.

وتلك هي الفواصل في قوله: ﴿وَما قَلى﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدى(٧) وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (٨)﴾ وفيما يلي أقف مع كل فاصلة من تلك الفواصل، محاولًا الكشف عن أسرار الحذف في كلٍ منها، ودوره في رعاية الفاصلة وإقامة المعنى.

الحذف في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلى﴾

يقول الطبري: " (وَمَا قَلَى) ومعناه. وما قلاك، اكتفاءً بفهم السامع لمعناه، إذ كان قد تقدّم ذلك قوله: (مَا وَدَّعَكَ) فعرف بذلك أنَّ المخاطب به نبيّ الله-ﷺ-"(١).

فالحذف لقصد الإيجاز والاختصار؛ اكتفاءً بدلالة المذكور عن المحذوف، واعتمادًا على فهم السامع للمعنى، حيث لا يخفى المراد.

فالحذف أفاد فوائد عدة:

أحدها: الإيجاز، حيث استغنى بذكر الكاف في " وَدَّعَكَ " عن ذكرها هنا.

ثانيها: أنَّ الحذف جاء رعايةً للفاصلة، فرؤوس الآيات بالياء فأوجب اتفاقها حذف الكاف.

ثالثها: أن الحذف أفاد الإطلاق والعموم في المفعول، فيكون المعنى: ما قلاك ولا قلى أحدًا من أصحابك(٢).

وقد تناولتُ هذه الفاصلة فيما سبق، وبينتُ أثرها في تأكيد المعنى وتقويته، وهي إلى جانب ما أفادته من تأكيدٍ، فإننا نلاحظ كذلك أنَّ حذف

(١) جامع البيان للطبري، جـ٢٤/٤٨٥

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم د/عائشة محمد علي عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط:٧ جـ١/٣٤.

مفعول الفعل " قلى" إلى جانب ما فيه من مراعاةٍ لنظام الفواصل وبنائها، وإلى جانب ما أفاده من عمومٍ في المفعول، فإنَّه كذلك قد تحاشى إيقاع القلى على ضميره -ﷺ- فحذف المفعول تكريمًا له-ﷺ- وإشعارًا بعظيم منزلته عند ربه، وتلك لطيفةٌ أخرى من لطائف النظم، ودقيقةٌ من دقائق التعبير، إذ جمع بهذا الحذف بين جمال المبنى ودقة المعنى، فجمالُ المبنى من جهة ما أضفاه هذا الحذف من اتساقٍ بين الجمل وتناغمٍ بين العبارات، حيث جاءت الفواصل على نسقٍ واحدٍ أكسبها جمالًا، وزادها عذوبةً وبهاءً، ودقةُ المعنى من جهة ما أفاده الحذف من تكريمٍ للنبي-ﷺ- وتعظيمٍ لشأنه بعدم إيقاع لفظ القلى على ضميره، ولا شك أن الجمع بين الأمرين – أعني جمال المبنى ودقة المعنى- قد أحدث في النفس إقبالًا ومتعةً، وفي القلب هزةً، وفي العقل ونشاطًا.

يقول الألوسي – رحمه الله-: "وحُذف المفعول لئلا يُواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلامٍ منفيٍ لطفًا به -ﷺ- وشفقةً عليه -ﷺ- أو لنفي صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه -ﷺ- ولأحد من أصحابه ومن أحبه -ﷺ- إلى يوم القيامة، أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاةً للفواصل" (١).

وقد يقال: إن التعبير جاء قبل بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ فأوقع فعل التوديع على ضميره-ﷺ- فلِم لَم يحذف هناك كما حذف هنا؟

والجواب عن ذلك أنَّ الحذف في الأول غيرُ جائزٍ إذ لا دليل على المحذوف. يُضاف إلى ذلك أنَّ في القلى من حسَّ الطرد والإبعاد وشدَّة البغض ما ليس في التوديع، بل لعل الحسَّ اللغويَّ فيه يؤذن بأنَّه لا يكون

(١) روح المعاني للألوسي، جـ١٥/٣٧٥.

وداعٌ إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديعٌ إلا مع رجاء العودة وأمل البقاء(١).

الحذف في الفواصل الثلاثة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨)﴾

وهذه الآيات الكريمة جاءت في مقام امتنان الله على نبيه والتذكير له-ﷺ- بنعم ربه، فبعد أن نفى القلى والتوديع، ووعده بما يرضيه وتقرُّ به عينه، وبشَّرَهُ بأنَّ أُخراه خير من أُولاه، شرع في بيان نعمه عليه من الإيواء بعد اليتم، والهدى بعد الحيرة، والغنى بعد الفقر، و تلك النعم دليلُ محبةٍ لا قلى وبغضٍ، وشاهدُ قربٍ لا توديعٍ وبعدٍ.

وبدأت الآيات بهذا الاستفهام المفيد للتقرير، وما كان له-ﷺ- أن ينسى تلكم النعم فضلا عن أن ينكرها أو يجحدها فيحتاج إلى تقرير، لكنَّه-ﷺ- لما استشعر أنوار الوحي، وآنس لذة القرب، شقَّ عليه أن يفتر عنه الوحي، أو يتأخر عليه جبريل، فخاف التوديع والقلى، وخشي على نفسه النزول عن تلك الرتبة التي نالها والمنزلة التي رفعه الله إليها، فلما كان منه ذلك الخوف عومل معاملة من نسي تلك النعم ، والتي لا تكون إلا لمقربٍ محبوبٍ، فقد آواه وهداه وأغناه، فذكَّره وقرَّره بها عاتبًا عليه، ودافعًا عنه ما خافه من قلى وتوديعٍ، ومبشرًا له بدوام القرب ورفعة المنزلة.

وقد يقال: كيف يمن عليه بنعمة الإيواء والتربية وقد حكى عن فرعون في معرض الذم يمن على موسى، فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٨] ورُدَّ بأنَّه اُستحسن هنا إذ قُصد به تثبيتُ فؤاده، وتقويةُ قلبه، والوعدُ له

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن، د/ عائشة عبد الرحمن، ص٢٦٩.

بتمام النعمة ودوامها، أما امتنان فرعون فقد قَصد به تحقيرَ موسى، والإزراءَ به، والتضعيفَ له[١].

وقوله: ﴿يَتِيماً﴾ الظاهر أن المراد اليتم المعروف بفقد الأبوين أو أحدهما.

وذكر بعضهم وجهًا آخر له، فقال: هو من أقوال العرب: درةٌ يتيمةٌ إذا لم يكن لها مثل، وعليه فالمعنى: أَلَمْ يَجِدْكَ واحدًا في شرفك، وفضلك، لا نظير لك، فآواك إليه[٢].

وقد عاب الزمخشري هذا التوجيه وعده من بدع التفاسير[٣].

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿فَآوَى﴾ وهو يحتمل معانٍ: فقيل: آواه إلى عمه وألان قلبه له حتى فضله على أبنائه واشتد حبه له، وقيل: تولى تربيته ورعايته بلطف عنايته، فكان تأديب الله له خيرًا من تأديب والديه، وقيل: آواه إلى بساط قربه، فانفرد بمقام لم ينله أحدٌ قبله، ولم يشاركه فيه غيره[٤].

ثم انتقل إلى نعمة أخرى من نعمه على نبيه فقال سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى﴾ والضلال في الآية يحتمل معانٍ: الأول: وجدك لا تعرف الحق

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، جـ١٩٦/٣١.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي، جـ٢٢٦/١٠ وينظر: النكت والعيون للماوردي ٢٩٤/٦.

(٣) ينظر: الكشاف، جـ٧٦٧/٤.

(٤) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري، جـ٧٤١/٣.

فهداك إليه. الثاني: وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة فهداك إليه. الثالث: وجدك في قومٍ ضلالٍ، أي: فكأنك منهم(١).

وأجاز أبو حيان أن يكون الكلام على حذف مضافٍ، والتقدير: وجد رهطك ضالًا فهداه بك(٢).

وقد أكثروا القول في المراد بالضلال في هذه الآية، ولم يقل أحدٌ بأن المراد الضلال عن الإيمان باتباع الباطل أو الشرك، فالأنبياء معصومون من ذلك اتفاقًا (٣).

ثم ذكره تعالى بنعمة أخرى فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ فقد أغناه تعالى بعد فقرٍ حيث يسَّرَ له سُبل الغنى بالتجارة في مال السيدة خديجة –رضي الله عنها–، وأحلَّ له الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبله، إلى غير ذلك مما أفاء به عليه.

ونلاحظ في هذه الآية والتي قبلها الطباق بين (ضالًا وهدى) وبين (عائلًا وأغنى) وكان في الإمكان أن يأتي النظم على نحو: لقد هدك وأغناك، لكنَّ في الطباق بالنصِّ على ما يقابل الهدى وما يقابل الغنى مزيدَ تأكيدٍ على المعنى، وتنبيهًا إلى ما بين الأمرين من تفاوتٍ وتباينٍ يستوجب النظر ويسترعي الانتباه، وفيه كذلك تذكيرٌ له بما كان عليه قبل أن يتداركه ربه بلطفه، وعتابٌ رقيقٌ له–ﷺ– إذ خاف الوداع والقلى بعد توارد تلك النعم.

(١) ينظر: النكت في القرآن الكريم لابن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، تحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١/١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ص٥٦٠.

(٢) البحر المحيط، جـ١٠/٤٩٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، جـ٣٠/٤٠٠.

ونأتي إلى بيت القصيد حيث حذف مفعول الأفعال الثلاثة: (آوى – هدى– أغنى) ولا يخفى ما فيه من رعايةٍ للفاصلة، ومحافظةٍ على تآلف الألفاظ وانسجام العبارات، فقد أفاض هذا الحذف على الألفاظ عذوبةً، وزادها جمالًا، مما جعل النفس تهش لها، والآذان تطرب لسماعها، ولتقف على ذلك اعمد إلى تلك الفواصل وأعد إليها ما حذف منها، فإنَّك تجدها قد فقدت رونقها، وسُلبت جمالها بإعادة ذلك المحذوف.

يضاف إلى ذلك ما أضافه الحذف من تخفيفٍ، مما جعل الألفاظ سهلةَ النطق، فهي تجري على اللسان بلا أدنى مشقة أو عسر.

وفي هذا المعنى يقول الجاحظ: " إذا كان الشعر مستكرهًا، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلًا لبعضٍ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيًا موافقًا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغًا وسبك سبكًا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" (١).

ولم تقتصر دلالة الحذف على تلك الوظيفة اللفظية بل امتدت إلى المعنى، إذ أفاد به إثبات الفعل في ذاته بصرف النظر عن المفعول، فدلَّ بالحذف على كمال رحمة الله ولطفه، ومزيد عنايته وفضله، وحسن تدبيره لشئون خلقه، وأنَّ تلك الصفات ثابتةٌ له مع عموم خلقه، فكيف الشأن بأنبيائه وفي مقدمتهم سيدنا محمد–ﷺ–

(١) البيان والتبيين، جـ١/٧٥.

المبحثُ الرابعُ:
العدولُ في الفاصلةِ وأثرُهُ الدلاليُّ

ظاهرة العدول بصفةٍ عامةٍ والعدول في الفاصلة القرآنيَّةِ بصفةٍ خاصةٍ إحدى الظواهر التي تحتاج إلى دراسةٍ ومزيد عنايةٍ؛ لما لها من أثرٍ في بلاغة النظم ودورٍ في دلالته على المعنى، فهو فضلا عما فيه من إثارةٍ ذهنيةٍ، ومتعةٍ عقليةٍ ناتجةٍ عما يحدثه من انتقال بين البدائل المتاحة للتعبير، باختيار أدقها وأوفاها بالمراد، وأدلها على المقصود، وما يُوقعه من تجديدٍ في الأساليب، وحركةٍ في قوالب الجمل، وتغييرٍ لنمطية الألفاظ، فيكسبها بذلك حيويةً، ويجعل النفس أشد بها تعلقًا، وأكثر عليها حرصًا؛ إذ النفس تملُّ المألوف من الكلام عادة ، وتمقت النمطية في التعبير، فتحتاج بين حين وآخر إلى ما يجدد نشاطها، فإذا تم لها ذلك زاد إقبالها، وإضافةً لذلك فلا بدَّ للعدول من غرض يرمي ويقصد إليه، ليفكر العقل ويبحث عما وراء الحجب وعن سر ذلك العدول.

وللعدول صورٌ كثيرةٌ وأنماطٌ متعددةٌ فقد يقع بين حروف الجر بالتناوب فيما بينها، وقد نبه "ابن جنِّي" إلى هذه الظاهرة فذكر أن استعمال الحروف بعضها في موضع بعض واردٌ ومستعملٌ في اللغة، لكن ليس ذلك على عمومه، وإنما بحسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له، فأمَّا في كل موضعٍ وعلى كل حالٍ فلا، وقد وضع لذلك ضابطًا، فقال:" اعلم أنَّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر، فإنَّ العرب قد تتسع فتُوقع أحد الحرفين موقع صاحبه؛ إيذانًا بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله عز اسمه:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنَّه لمَّا كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدى أفضيت

بـ" إلى" كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت بـ " إلى" مع الرفث إيذانًا وإشعارًا أنه بمعناه" (١).

ومن صوره كذلك ورود الكلمة بالتخفيف تارة وبالتضعيف أخرى، لغرض بلاغي، كما في قوله: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فآثر التعبير بالفعل المخفف في قوله:﴿ وَلَا تَحْمِلْ ﴾، ثم عدل عنه إلى المضعف في قوله: ﴿ تُحَمِّلْنَا ﴾ فخصَّ الأول بالحمل، والثاني بالتحميل؛ لأنَّ الشاقَّ يمكن حمله، أما ما لا يطاق فالحاصل فيه التحميل فقط (٢).

ومن صوره كذلك إيثار لفظ على مرادفه؛ لما في ذلك اللفظ من فائدةٍ زائدةٍ، أو معنى خاصٍ لا يؤديه مرادفه، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله: " وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكرُ المطرِ، لأنَّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنَّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين..." (٣).

---

(١) الخصائص لابن جني تحقيق الأستاذ/ محمد علي النجار – المكتبة العلمية – بيروت، جـ٢/ ٣٠٨.

٢) مفاتيح الغيب للرازي ١٦١/٧

(٣) البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ، ٤١/١.

ومن صوره كذلك العدول في الفواصل، حيث ينتقل من فاصلة إلى أخرى، فتكون الفواصلُ في السورة الواحدة متعددةً متنوعةً، وربما بُنيت السورة على فاصلةٍ رئيسيةٍ، فينتقل منها إلى أخرى فرعيةٍ، ثم يعود بعد إلى الفاصلة الرئيسة، وربَّما عدل عن المألوف في ترتيب الجملة فينتج عن ذلك العدول عن فاصلةٍ إلى أخرى. ولابد أنَّ لهذ العدول أسرارًا، وأنَّ هذا الانتقال لمعانٍ، ربما كانت ظاهرةً بينةً، وربما دقت وخفيت فاحتاجت إلى إعمال فكرٍ ومزيد تدبرٍ وتأملٍ.

وفي سورة الضحى امتدت فاصلة الألف المقصورة لثمان آيات، ثم تحولت منها إلى فاصلة الراء في آيتين، ثم ختمت بفاصلة الثاء، فقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

وتلك الآيات الثلاث وصايا من الله تعالى لنبيه، فبعد أن عرَّفه بنعمه من الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الحيرة، والغنى بعد الفقر، وتلك نعمٌ ثلاث، دلَّه على طريق شكرها، فقابل كل نعمةٍ بما يناسبها، فوصَّاه بوصايا ثلاث، فجعل في مقابل قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ قوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾، وجعل بإزاء قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ قوله: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾، وهذا على أنَّ السَّائِلَ هنا هو السائل عن العلم والدين لا المال، وهو قول أبي الدرداء والحسن وغيره، وجعل بإزاء قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ قوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ،وعلى القول بأنَّ السائل هو المحتاج، فقد قابل قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ بقوله: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقابل قوله:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١). فبين تلك الجمل لف ونشر مرتب أو غير مرتب.

وتلك الوصايا على سبيل التذكير له والإرشاد لأمته، وإلا فقد كان- ﷺ- أرقَّ الناس قلبًا، وأحسنَهم خلقًا، وأعطفَهم على يتيمٍ، وألينَهم لسائلٍ، وأعرفَهم لنعم ربه، وأطلقَهم لسانًا بحمده.

وفيما يلي أتناول هذه الوصايا الثلاث، باحثًا قدر الطاقة عن الأثر الدلالي والبلاغي لذلك العدول والانتقال في الفاصلة.

وقد ابتدأت تلك الوصايا الثلاث بـ (أَمَّا) وهي متضمنة لمعنى الشرط، ولذا يلزم اقتران جوابها بالفاء، وهي بمعنى "مهما" وفائدتها التأكيد، ولذا تقول: زيدٌ ذاهبٌ، فإن قصدت أنَّه لا محالة ذاهبٌ، قلت: أمّا زيدٌ فذاهبٌ(٢).

ونلاحظ كذلك في الوصايا الثلاث عدولًا عن الترتيب المألوف، إذ لو جاء الكلام على أصله لقال: فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، وحدِّث بنعمة ربك، ولكنَّ هذا العدول بتقديم المفعول فيها على الفعل لقصد العناية به والاهتمام بشأنه. وتحقيقًا لهذا المعنى لم يُؤت به مرفوعًا فيكون فاعلا لفعل محذوف يفسره المذكور بعده، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] ونحوها. وقد حصل بهذا التقديم كذلك الوفاء باستعمال جواب (أَمَّا) مفصولا عنها كراهية مولاة فاء الجواب لحرف الشرط، والظاهر أنَّهم ما التزموا الفصل بين (أَمَّا) وجوابها بتقديم شيءٍ من علائق الجواب إلا لقصد

(١) المحرر الوجيز لابن عطية جـ٥/٤٩٥.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، جـ٤/٢٤٢.

الاهتمام بالمُقدَّم، فاجتلابُ (أَمَّا) أثرٌ للاهتمام، وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلقات الجملة فذلك هو الذي يعنون بتقديمه(١).

ومن هنا ندرك أن الوصية باليتيم والسائل، والاعتراف بالنعمة وعدم جحدها أو إنكارها، من الأمور التي ينبغي أن تكون محلَ عنايةٍ، وموضعَ اهتمامٍ ورعايةٍ من العبد، لاسيما وأنَّ العبد كثيرا ما يغفل عنها، ولا يكترث لها استصغارًا منه لشأنها، أو نسيانًا لها، فنبهه بهذا التقديم على عظيم قدرها وجليل شأنها.

إلى جانب ذلك فإنَّ العدول هنا عن الترتيب المألوف كان له دورٌ في تناغم الفاصلة والمحافظة على إيقاع الألفاظ وموسيقى العبارات، حيث اتحدت الفاصلة في قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ولو جاء الكلام على الترتيب المألوف: فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل لسُلب تلك الميزة، وفقد جماله وعذوبته.

يضاف إلى ذلك أنَّ التقديم هنا قد جاء محققًا لمعنى التشويق، حيث أتى بالكلام على صورة الشرط والجواب، إذ لا شك لما قال: فأمَّا اليتيم، وأمَّا السائل، وأمَّا بنعمة ربك، وقع في النفس تلهفٌ، وحدث لها تشوقٌ وترقبٌ لما سيذكر بعد، فجاء الجواب على الترتيب : فلا تقهر– فلا تنهر– فحدِّث.

ولتقف على ذلك قارن بين نظم الآية الكريمة وبين أن تقول: فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، وحدث بنعمة ربك، فإنك لا شك تدرك ما بين التعبيرين من بونٍ وبعدٍ، إذا قد تحقق بالنظم القرآني معانٍ ما كان لها أن تتحقق بغيره، أشرت إلى بعضها، وقصرت الملكة عن استقصائها ولكلٍ ما رُزق.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٤٠١

ثم إذا نظرنا في الفاصلتين (تنهر وتقهر) نجد مع ما بينهما من اتفاقٍ في الفاصلة نجد كذلك بينهما جناسًا ناقصًا.

والجناس من الوسائل التي تبعث على الإيقاع والتنغيم الصوتي، لتشابه الأصوات في الألفاظ المتجانسة، عند تكرار حروفٍ معينةٍ بترتيبٍ معينٍ (١).

وهو إلى ذلك يؤثر في النفس أيَّما تأثير، ويعمل فيها أيَّما عمل، فجماله ليس قاصرًا على الألفاظ وحدها بحيث لا يتعداها، وإنَّما هو يتغلغل بعمق في ثنايا النفس، ويسري بخفةٍ وسلاسةٍ إلى العقل والقلب، ولا يدرك أثره إلا من رقَّ طبعه ورقى ذوقه، ولطف حسه، ومثل هذا لا شك له أثرٌ إيجابيٌّ في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب(٢).

فهو كما ذكر السيوطي- يُحدث في النفس ميلًا إلى الإصغاء؛ ذلك أن تشابه الألفاظ يحدث ميلًا وإصغاءً؛ لأنَّ اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى، ثم جاء والمراد به آخر، كان للنفس تشوقٌ إليه (٣).

ثم ختمت الفاصلة الثالثة من هذه الفواصل بقوله:﴿ فَحَدِّثْ﴾ فعدل من فاصلة الراء إلى الثاء، وفي هذا العدول ما يؤكد أنَّ الفاصلة في القرآن لم تراع جانب اللفظ على حساب المعنى، وأنَّ الفاصلة فيه لم تأت قسرًا، ولم تُجلب قهرًا، وإنَّما استعلمت حيث استدعاها المقام واحتاج لها المعنى، فيتحقق بها الأمران معا دقة المعنى وجمال المبنى، كما تحقق فيما سبق من

(١) ينظر: وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية د/ روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية، بيروت. ص٢٠١١، ٢٠١٢.

(٢) المحسن البديعي وأثره في إقامة المعنى وبلاغة التراكيب الأدعية النبوية نموذجًا، د/ علي عبد الكريم، مجلة الزهراء، العدد الثلاثون، ص٢١١٦٤.

(٣) ينظر: الإتقان، جـ٣/٣١٠.

فواصل، وإلا فقد يعدل عن الفاصلة المحققة للإيقاع إن كان في استعمالها ظلمٌ للمعنى وإجحافٌ به كما فعل هنا، فعدل عن التعبير بخبِّر إلى التعبير بحدِّث.

وفي هذا المعنى يقول المُطَرِّزيِّ في شرح المقامات فيما نقله عنه ابن معصوم في أنوار الربيع " اعلم أنَّ أنواع الجناس لا تُستحسن حتى يساعد اللفظ المعنى، ولا تُستلذ حتى تكون عذبة الإصدار والإيراد، سهلةً سلسلةَ المقاد، ولا تبرع حتى يساوي مطلعها مقطعها، ولا تملح حتى يوازي مصنوعها مطبوعها، مع مراعاة النظائر، وتمكن القرائن، وإلا فما قلق في أماكنه، ونبا عن مواقعه، فبمعزل عن الرضا عند علماء البيان، وبمكان من البشاعة لدى أرباب النثر وأصحاب النظم. فإذا أردت أن تستوفي أقسام المحاسن، وتجتنب أنواع المشائن، فأرسل المعاني على سجيتها ودعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنَّها إذا تركت وما تريد، لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها" [1].

وهذا الحكم من المطرزي ليس خاصًا بالجناس وحده وإنَّما جارٍ في سائر فنون البديع بل سائر فنون البلاغة، ومن ثم فلا يجوز في دراسة الفاصلة القرآنية الاقتصار على الناحية اللفظية والجانب الشكليِّ لها، وإنَّما ينبغي أن يُبحث عما أدته الفاصلة من معانٍ ما كان لها أن تتحقق بدونها، وما لها من دور في تشكيل المعنى وأثر في إبرازه.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن " وأما تعليل الحذف برعاية الفاصلة، فليس من المقبول عندنا أن يقوم البيان القرآني على اعتبارٍ لفظيٍّ محضٍ، وإنَّما الحذف لمقتضى معنويٍّ بلاغيٍّ، يقويه الأداء اللفظيُّ، دون أن

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شكر،، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف، ط:١-١٩٦٨م، جـ٢٢٢/١.

يكون الملحظ الشكليُّ هو الأصل. ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا، لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .وليس في السورة كلها ثاء فاصلة، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق، ولم يقل تعالى: فخبرْ، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به" [١].

(١) التفسير البياني للقرآن، د/عائشة عبد الرحمن، جـ١/٣٥.

الخاتمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

فمن خلال هذا البحث المتواضع تناولت سورة الضحى؛ باحثًا عما حوته من معانٍ، وما تضمنته من لطائفَ وأسرارٍ، وكان التركيز منصبًا على فواصلها، وما لتلك الفواصل من دورٍ في الربط بين أجزاء النظم، وما لها من أثرٍ في إبراز المعنى بعرضه في صورةٍ بليغةٍ وعبارةٍ رشيقةٍ، تستدعي الإصغاء وتستوجب التأمل، وقد توصل هذا البحث إلى مجموعةٍ من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولًا: الفاصلة سرٌ من أسرار القرآن، ووجهٌ من وجوه إعجازه، أدركه العرب بما لهم من رقةِ طبعٍ، وما وهبوه من فرط شعورٍ وذوقٍ، إذ لا شك تبين لهم أنَّ الجمع بين الإيقاع مع عدم الإخلال بالمعاني في القرآن كله دون تفاوتٍ أو سقوطٍ في موضع منها، مما يخرج عن طوق البشر ولا تحيط به القدر.

ثانيًا: تُعدُّ الفاصلة من السورة بمنزلة الخيط من العقد، حيث يُبنى عليها نظم السورة بأكملها، فتربط بين أجزائها، وتحيط بجواهر لفظها، وبديع معانيها، فتظهر ما عساه يخفى من جمالها، وتنفث فيها من سحرها، فتملؤها ريًا، وتزيد النفس بها إعجابًا، ولها تطلعًا.

ثالثًا: تتعدد أوجه الإعجاز البلاغي التي تكشف عنها الفاصلة القرآنية، بما تضمه من توازنٍ صوتيٍّ، وترابطٍ دلاليٍّ، وتماسكٍ لفظيٍّ، ودقةٍ ووفاءٍ بالمعنى.

رابعًا: بالتأمل نجد أنَّ مفردات سورة الضحى جاءت لتشيع جوًا من الطمأنينة وتثبيت القلب والربط على فؤاده-ﷺ-، وقد جاءت الفاصلة معينة على ذلك؛ إذ بها يلامس القارئ راحةً، ويستشعر هدوءً وسكينةً.

خامسًا: بتأمل القسم الذي بدأت به السورة نجد دقةً تامةً في توظيف الألفاظ واختيارها، لتفي بما تقصد إليه من معانٍ، وما ترمي إليه من

أغراضٍ، وتتجلى هذه الدقة فيما اشتمل عليه القسم من مطابقةٍ بين نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام، ونور الوحي الذي وافاه بعد احتباسٍ.

سادسًا: جاءت الفاصلة في سورة الضحى لتؤدي وظائف لا يمكن إغفالها، فهناك وظيفةٌ لفظيةٌ تمثلت في تلك العذوبة وهذا الإيقاع الذي أضفته الفاصلة على آياتها، ولو أنَّك نزعت تلك الفواصل واستغنيت عنها لاستشعرت ثقلًا ولوجدت جفاءً، وهناك وظيفةٌ نفسيةٌ تمثلت فيما أدخلته تلك الفواصل على النفس من إيناسٍ، وما شملته بها من حنوٍ وعطفٍ، وما أودعته فيها من سكينةٍ، ثمَّ هناك وظيفةٌ لها علاقةٌ بالمعنى تمثلت في تأكيده وتقريره.

سابعًا: بالدِّراسة المتأنية للفواصل يظهر لنا العلاقة الوثيقة والتناسب التَّام بين صدر الآيات وعجزها، وتلك ظاهرة تسترعي الانتباه ثابتةٌ في القرآن كله، حيث جاءت فواصله في حقلٍ دلاليٍّ مناسبٍ، وبيئةٍ من الألفاظ المتناغمة.

ثامنًا: بالنظر في سورة الضحى نلاحظ أنَّها اعتمدت على الحذف في بعض فواصلها، وقد جاء هذا الحذف مؤديًا لوظيفتين أحدهما جماليةٌ تمثلت في رعاية الفاصلة، وما أدخلته تلك المراعاة على الألفاظ من تناغمٍ، وما أحدثته من إيقاعٍ. والأخرى معنويةٌ تمثلت في إقامة المعنى وتأديته والوفاء به.

تاسعًا: ظاهرة العدول بصفةٍ عامةٍ، والعدول في الفاصلة القرآنيِّة بصفةٍ خاصةٍ إحدى الظواهر التي تحتاج إلى دراسةٍ ومزيد عنايةٍ؛ لما لها من أثرٍ في بلاغة النظم ودورٍ في دلالته على المعنى، حيث يتنقل النظم بين فاصلة وأخرى، فتكون الفواصلُ في السورة الواحدة متعددةً متنوعةً، وربَّما بُنيت السورة على فاصلةٍ رئيسيةٍ، فينتقل منها إلى أخرى فرعيةٍ، ثمَّ يعود بعد إلى الفاصلة الرئيسة، وربما عدل عن المألوف في ترتيب الجملة فينتج عن ذلك العدول عن فاصلةٍ إلى أخرى.

فهرس المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- الأسلوبية والبلاغة العربية مقاربة جمالية، د/مسعود بودوخه، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن ٢٠١٧م.

٤- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د/عائشة عبد الرحمن، دار المعارف ط:٣.

٥- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط:٥/١٩٩٧م.

٦- أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شكر،، مطبعة النعمان بالنجف الأشرف.

٧- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي، ط: ١- ١٩٥٧م.

٨- البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣هـ.

٩- التبيان في أيمان القرآن لابن القيم، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: ١/١٤٢٩هـ.

١٠- تجديد النحو د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط.٦.

١١-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٢-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر١٩٨٤هـ.

١٣-التفسير البياني للقرآن، د/عائشة عبد الرحمن، دار المعارف – القاهرة، ط:٧.

١٤-ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

١٥-جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:١/١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م.

١٦-خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط:٧.

١٧-الخصائص لابن جنِّي، تحقيق الأستاذ/ محمد علي النجار – المكتبة العلمية – بيروت.

١٨-دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.

١٩-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، تحقيق/محمود محمد شاكر- مطبعة المدني بالقاهرة، ط: ٣/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٠-ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق د/ محمد حسين، مكتبة الآداب.

٢١-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١/١٤١٥هـ.

٢٢-الصبغ البديعي د/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

٢٣-صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١/ ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٤-الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
٢٥-العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط:٥/١٩٨١م.
٢٦-الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط:٢/٢٠٠٠م.
٢٧-فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٢٨-فواصل الآيات القرآنية، د/ كمال الدين عبد الغني المرسي، المكتب الجامعي الحديث بالأسكندرية، ط:١/١٩٩٩م.
٢٩-الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، تحقيق: الطاهر بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط:١/ ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
٣٠-لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط:٢/١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٣١-اللغة الشاعرة للعقاد، نهضة مصر، ١٩٩٥م.
٣٢-مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم – دار مسلم – الرياض – ط. الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
٣٣-المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط:١٩٩٩م.
٣٤-المحسن البديعي وأثره في إقامة المعنى وبلاغة التراكيب الأدعية النبوية نموذجًا، د/ علي عبد الكريم، مجلة الزهراء، العدد الثلاثون.
٣٥-معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١/١٤٠٨هـ.
٣٦-مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٣/١٤٢٠هـ.

٣٧-المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط:١/ ١٤١٢هـ.

٣٨-المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٩-من بلاغة القرآن، د/ أحمد البدوي، نهضه مصر، القاهرة ٢٠٠٥م.

٤٠-مناهل العرفان في علوم القرآن، للزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي،ط:٣.

٤١-نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية بحث للدكتور/ سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد: العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو أغسطس١٩٩١م، والبحث منشور على موقع دار المنظومة.

٤٢-النشر في القراءات العشر لابن الجزري- تحقيق الشيخ/علي محمد الضباع شيخ عموم المقارئ المصرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٣-النكت في القرآن الكريم لابن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، تحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط:١/١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٤٤-الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب / دار العلوم الإنسانية – دمشق، ط:٢/ ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م.

٤٥-وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية د/ روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

References :

1- al'iitqan fi eulum alqurani, tahqiqu: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi, ta:1394hi/ 1974m.
2- 'iirshad aleaql alsalim 'iilaa mazaya alkitaab alkarim, li'abi alsaeudi, dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut.
3- al'uslubiat walbalaghat alearabiat muqarabat jamaliat, da/maseud budukhh, markaz alkitaab al'akadimi, al'urduni 2017m.
4- al'iiejaz albayaniu lilquran wamasayil abn al'azraqa, da/eayishat eabd alrahman, dar almaearif ta:3.
5- 'iiejaz alquran lilbaqlani, tahqiqu: alsayid 'ahmad saqra, dar almaearif - masri, ta:5/1997m.
6- 'anwar alrabie fi 'anwae albadie liaibn maesum almadani, tahqiqu: shakir hadi shakra,, matbaeat alnueman bialnajaf al'ashrafi.
7- alburhan fi eulum alquran lilzarkashii tahqiqu: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, dar 'iihya' alkutub alearabiat eisaa albabaa alhalbi, ta: 1- 1957m.
8- albayan waltabyin liljahizi, dar wamaktabat alhilali, birut1423h.
9- altibyan fi 'ayman alquran liabn alqiami, dar ealam alfawayidi, makat almukaramati, tu: 1/1429hi.
10- tajdid alnahw da/ shawqi dayfa, dar almaearifi, ta.6.
11- tahrir altahbir fi sinaeat alshier walnathr wabayan 'iiejaz alquran liabn 'abi al'iisbie almisrii, tahqiqu: alduktur hifni muhamad sharaf, almajlis al'aelaa lilshuyuwn al'iislamiati.
12- altahrir waltanwir liltaahir bin eashur, aldaar altuwnusiat lilnashri1984hi.
13- altafsir albayaniu lilqurani, da/eayishat eabd alrahman, dar almaearif - alqahirati, ta:7.
14- thalath rasayil fi 'iiejaz alquran lilrrmani, walkhatabi, waeabd alqahir aljirjani, tahqiqu/ muhamad khalf allah, du. muhamad zaghlul salam, dar almaearif bimasr.
15- jamie albayan fi tawil alquran liltabri, tahqiqu: 'ahmad muhamad shakiri, muasasat alrisalati, ta:1/1420 ha - 2000m.
16- khasayis altarakib darisat tahliliat limasayil eilm almaeani, du/ muhamad 'abu musaa, maktabat wahbata, ta:7.

17- alkhasayis liabn jnni, tahqiq al'ustadh/ muhamad eali alnajaar - almaktabat aleilmiat - bayrut.
18- dirasat li'uslub alquran alkarim, du/ muhamad eabd alkhaliq eadaymatun, dar alhadithi, alqahirati.
19- dalayil al'iiejaz lil'iimam eabd alqahir, tahqiqu/mahmud muhamad shakiri- matbaeat almadanii bialqahirati, ta: 3/ 1413h - 1992m.
20- diwan al'aeshaa alkabiri, sharh wataeliq du/ muhamad husayn, maktabat aladab.
21- ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walsabe almathani, lil'alusi, tahqiqu: ealiu eabd albari eatiata, dar alkutub aleilmiati, bayrut, ta:1/1415h.
22- alsabgh albadieiu du/ 'ahmad 'iibrahim musaa, dar alkatib alearabii, alqahirat 1388h 1969m.
23- sahih abn hiban, tahqiqu: shueayb al'arnawuwta, muasasat alrisalati, bayrut ta1/ 1408hi, 1988m.
24- alsinaeatayn li'abi hilal aleaskari, tahqiqu: eali muhamad albijawi, wamuhamad 'abu alfadl 'iibrahim, almaktabat aleasriatu, bayrut 1419hi.
25- aleumdat fi mahasin alshier wadabih liabn rashiqa, tahqiqu: muhamad muhyi aldiyn eabd alhamidi, dar aljili, ta:5/1981m.
26- alfasilat fi alquran limuhamad alhasnawi, dar eamar, ta:2/2000m.
27- fath albari sharh sahih albukhari, tahqiqu: muhamad fuaad eabd albaqi, dar almaerifati, bayrut, 1379h.
28- fawasil alayat alquraniat, du/ kamal aldiyn eabd alghani almarsi, almaktab aljamieiu alhadith bial'uskandiriati, ta:1/1999m.
29- alkashf walbayan ean tafsir alquran lilthaelabii, tahqiqu: altaahir bin eashura, dar 'iihya' alturath alearabii, bayrut - lubnan, ta:1/ 1422h 2002m.
30- lbab aladab li'usamat bn munqadhin, tahqiqu: 'ahmad muhamad shakiri, maktabat alsanati, alqahirati, ta:2/1407h 1987m.
31- allughat alshaaeirat lileaqadi, nahdat masri, 1995m.
32- mabahith fi 'iiejaz alqurani, du/ mustafaa muslim - dar muslim - alriyad - ta. althaaniat 1416h 1996m.

33- almuhtasib fi tabyin wujuh shawadhi alqira'at wal'iidah eanha, wizarat al'awqaf-almajlis al'aelaa lilshuyuwn al'iislamiati, ta:1999m.
34- almuhsin albadiei wa'atharuh fi 'iiqamat almaenaa wabalaghat altarakib al'adeiat alnabawiat nmwdhjan, da/ eali eabd alkrim, majalat alzahra'i, aleadad althalathwun.
35- maetaruk al'aqran fi 'iiejaz alquran lilsuyuti, dar alkutub aleilmiati, bayrut, ta:1/1408h.
36- mafatih alghayb lilfakhr alraazii , dar 'iihya' alturath alearabii, bayrut, ta:3/1420h.
37- almufradat fi gharayb alquran lilraaghib al'asfuhanaa , tahqiqu: safwan eadnan aldaawudii, dar alqalami, aldaar alshaamiat - dimashq bayrut, ta:1/ 1412h.
38- almufasal fi eulum albalaghat alearabiat da/ eisaa ealii aleakuba, manshurat jamieat halba1421h 2000m.
39- man balaghat alqurani, du/ 'ahmad albadwayi, nahdah misira, alqahirat 2005m.
40- manahil aleirfan fi eulum alqurani, llzzurqany, matbaeat eisaa albabi alhilbi,ta:3.
41- nahw 'ajrumiat lilnasi alshierii dirasat fi qasidat jahiliat bahth lilduktur/ saed masluh, majalat fusuli, almujaladi: aleashir, aleaddan: al'awal walthaani, yuliu 'aghustus1991m, walbahth manshur ealaa mawqie dar almanzumati.
42- alnashr fi alqira'at aleashr liaibn aljazari- tahqiq alshaykhi/ealii muhamad aldibaae shaykh eumum almaqari almisriati, dar alkutub aleilmiati, bayrut.
43- alnikt fi alquran alkarim liabn ghalib almujashiei alqayrawani, tahqiqu: da. eabd allah eabd alqadir altawili, dar alkutub aleilmiat , bayrut, ta:1/1428h 2007m.
44- alwadih fi eulum alqurani, mustafaa dib albugha, mahyaa aldiyn dib mastu, dar alkalm altayib / dar aleulum al'iinsaniat - dimashqa, ta:2/ 1418 ha 1998m.
45- wasaya al'udaba' walkhulafa' walhukama' fi aleasr aleabaasii dirasat faniya da/ runak tawfiq eali alnuwrsi, dar alkutub aleilmiati, bayrut.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص	٢١
مقدمة	٢٣
تمهيد: الفاصلة والإعجاز البياني للقرآن	٢٧
المبحث الأول: العلاقة بين القسم والفاصلة.	٣٣
المبحث الثاني: دور الفاصلة في تأكيد المعنى وتقويته.	٤١
المبحث الثالث: الحذف رعايةً للفاصلة وإقامةً للمعنى.	٥٣
المبحث الرابع: العدول في الفاصلة وأثره الدلالي.	٦١
الخاتمة	٦٩
فهرس المراجع	٧١
فهرس الموضوعات	٧٨